الشهيد الدكتور علي شريعتي

النباهة والاستحمار

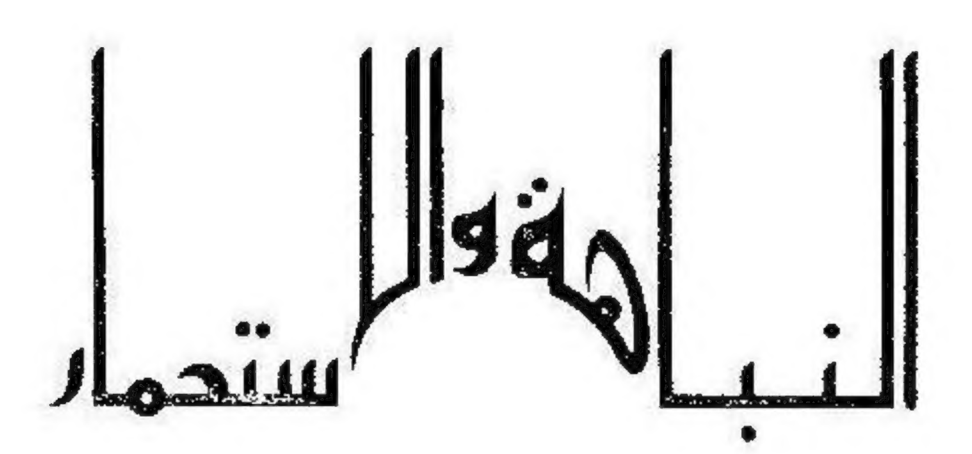


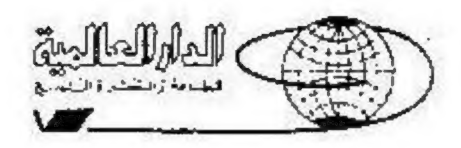
الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع
بناية الكومودور سنتر - الحمراء -
لبنان - بيروت - ص.ب ١١٣/٦٣٨١
تلفون ٣١٧٩٤٩

الشهيد الدكتور علي شريعتي





بسمه تعالى

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد ، وآله الطاهرين ، وبعد ، فهذه محاضرة ألقاها الدكتور علي شريعتي ، رحمه الله ، في قاعة حسينية (ارشاد) ، بطهران ، وقد سجلت على اشرطة ، ثم نقلت على الورقة ، وجمعت بين دفتي كتاب ، سمي (خود آگاهي استحمار) أي (النباهة والاستحمار) . ونحن نقدمها لقراء العربية ، آملين الاستفادة منها ، والله خير موفق ومعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

إن الحالة الخاصة التي نعيشها ، تفرض علينا ان نقول كلمتنا الأخيرة اولاً ، وأن نقرأ الكتاب من آخره ؛ ومن هنا ، فإن الموضوع قد يبدو مملاً للذين لم يتعرفوا بعد على الظروف الفكرية للقضايا التي سأعرضها ، وقد يحتاجون لمزيد من التأمل والدقة ؛ ومهما يكن ، فاني أعرض في هذه الجلسة ، أفكاراً تحتاج لجلسات عدة ، لكن ، لعدم توفر الفرص ، سأقول في أول كلمتي ، ما كان ينبغي أن أقوله في آخرها ؛ وهذا مما يزيد في إبهام الموضوع ، خصوصاً ان الكلام يدور حول مسائل فكرية وليس علمية .

وقبل البدء بالشرح والتفصيل ، أريد أن أقول : يجب ان نكون نبهين ،ولا نتوهم انفسنا مغتنين فكرياً بالكفاءة

العلميـة ، لأن تلك كفـاءة كـاذبـة ، ومُدعّي الاكتفـاء كـاذب ، وهذا نـوع من الغش الـذي يختص بـه المثقفـون والمتنـورون في زمانـنـا ، لأن المتعلم بعد أن ينـال دراسـات عـالية ، ويكتسب معلومات واسعـة ، ويتعرف الى اسـاتذة كبار ، والى كتب مهمة ، يشعر أنه أصبح مشبعاً بـالعلم ، ويحس في نفسه رضى وغروراً ، ويظن انه بلغ من النـاحية الفكـرية أقصى مـا يمكن ان يبلغه الانسـان الـواعي ؛ ولا شك أن هذا انخداع يبتلي به المتعلم أكثر من غيره .

قد لا يفكر الاستاذ ، أو الفيزيائي ، او الفيلسوف ، او الاديب ، او المؤرخ ، أنــه يمكن ان يكــون لا شيء مـن النـاحية الفكـرية ، وأنـه في مستوى أقـل العوام شعـوراً ، وحتى الأمي الـذي لا يحسن الخط مثلاً ، قـد يكـون أرقى منزلة في الدراية الشخصيـة وفي معرفـة الزمـان والمجتمع . إن بقاء المتعلم جاهـلاً ، والمثقف فاقـد الشعور ، واعـطاء كل منهما ألقـاباً بـارزة ، كالـدكتور والمهنـدس والبروفسـور لحالة مؤلمة جدا ، فيما لو استمر أي منهم . عـديم الفهم والنباهة ، والشعور بالمسؤوليـة تجاه حـركة التـاريخ ، التي تأخذه معها ، هو ومجتمعه في هذا الزمان .

إن خطر بقاء المتعلم جاهلاً ، وأخرس ، واعمى ، ولا شيء لخطر كبير جـداً ، لأن الانسان إذا أُشْبِـعَ بالعلم ، لم

يعـد يشعر بـالجوع الفكـري ، حيث أن المتعلمين في هـذه الايام ينظرون الى قضايا العلم منفصلة عن قضايا الفكر .

اختيار المقرر

إن مجتمعات العالم الثالث ، في اسيا وافريقيا واميركا اللاتنية ، المتأخرة صناعيا ، والتي لم تصل بعد الى مستوى الأوروبيين والأمركيين في شتى المناحي الفنية والفلسفية ، ـ ان هذه المجتمعات الفقيرة المتخلفة ـ تملك قدرات هائلة ، وتقف مكافحة ضد الغرب ، وتجبره على الخضوع والاستسلام ، في وقت بلغ الغرب فيه الذروة من حيث التقدم العلمي والتقني والفلسفي . وبالرغم من اقدامه على شراء النابغين والمتفوقين من العالم الثالث ، حيث أنه مركز المال ، وهذه الكفاءات صارت كالسلع المعدة للبيع والشراء ، تتبع المال اينما كان .

إن امتلاك الغرب للميراث العلمي ، واحتفاظه بجميع

الذخائر في الفروع العلمية كافة ، سواء منها ، تلك التي ابتدعها هو ، أو تلك التي أخذها عن ، غيره ، فبلغ بها ذروة التكامل العلمي والفلسفي والتكنولوجي ، لا يمنعه من الخضوع أمام مجتمعات لا تملك أي نوع من انواع الاسلحة ، وقد يكون أفرادها حفاة ، ولا يمتلكون حتى آله للدفاع عن حياتهم ، وحياة أسرهم . فمن هما طرفا الجدال والقتال في هذا العصر اذاً ؟ ! .

هناك مجموعة من القدرات العلمية والصناعية ، تقاتل جماعة تفتقد الصنعة والعلم ، ومصير هذا القتال بعد عدة أشهر وسنين ، سيكون لصالح اولئك الحفاة في هذه الدنيا ، سيكون بلا شك لصالح اولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وستخسر تلك القدرات التي حازت الذخائر العلمية والفنية طيلة تاريخ البشر !! فمن يقتتل مع من ؟؟

العلم في معركة مع « الفكر » ؛ هذا الحافي الجائع ، الذي قضي عليه ان يبقى فقيراً مريضاً ، تسلح بالايمان والعقيدة ، واستطاع بنباهته من التغلب على ذاك الذي جمع المقدرات العلمية والصناعية والفلسفية البشرية ، وادخر ثروة العالم ، رغم كونه أميا . اذاً ! هناك شيء آخر ، غير الثروة والقدرة والعلم والفلسفة والتكنولوجيا ، شيء لو صرفنا النظر « عن وجوده » لهزمنا أمام حفاة

الـدهـر ، وان كـانـوا عبيـداً مـظلومـين ، لأننـا ننهـار من الـداخل ، حتى لـو بلغنا ذروة التكـامل ، كـما بلغ الغرب المتحول اليوم (شرط ان نبلغ ، لكننا لا نبلغ) .

ومن هنـا تقف المجتمعات التي تـريد أن « تختـار » أمام طريقين : طـريق العلم والرأسمـالية والقـدرة والصنعة ، وطـريق الفكـر والعقيـدة . ومن المسلم بـه ،أن المجتمـع الذي يرتبط بهدف عال ، بعقيدة وايمان ، يتفـوق على كـل قـدرة ، حتى ولو كـانت القوة التي تسيـطر على « المنـظومـة الشمسيـة » . وان مجتمعاً كهـذا ، ستكون لـه بعـد عشـر سنين ، او خمس عشرة سنة حضـارة ، كـما ستكـون لـه صناعة ، وسَيُنْتِجُ على مستوى عالمي ايضـا . وهناك نماذج كثيرة في الزمن الماضي ، وفي وقتنا الحـاضر . أمـا إذا كان المجتمع فاقداً لنموذج يهدف اليه ، فاقداً للايمان ، وللوعي الـشخـصي والاجـتمـاعـي وليس همـه الا الـصنـاعـة والرأسمالية ، أو ما يسمى اليوم بالتقدم العلمي والصناعي (فـإن وفِقَ لنيـل مـا يـروم ، ولن يـوفقَ) فـإنـه سيبقى مستهلكـاً ، وان ظن أنـه منتـج . وهـذه هي الخـديعـة الكبرى ، التي وقعت فيها جميع البلاد المتأخرة ، فخسـرت ذلك الشيء الذي يَهبُ الرقيق العجوز المحروم قدرة تزلزل العجائب . وهكذا ؛ فإذا كنا أصحـاب عقيدة ، فـإنه متى وفقنا ان نجتاز مرحلة الايمان بنجاح ، فإنا سنكون صـانعين

لاكبر حضارة . أما اذا لم نشعر بنقص فكري ، ولم تنكشف لنا قضية الايمان والعقيدة ، ولم تتضح طريقنا ، فإنا سنبقى محتاجين أرقاء للمنتجين ، نعتمد على حضارتهم ، ونستهلك انتاجهم .

وللمجتمعات المتأخرة ، كما يقول فانون ، مصير متشابه ، ولها حاجات واحدة ، لأنها تواجه قدرات متشابهة في زمن مشترك واحد ، وعليها ان تختار بين « الفكر » و « الحضارة » من غير فكر ، ونعني « بالحضارة » ما يخرجه المتحضرون لنا ؛ ومن هنا ، أزمة المثقف اليوم في البلاد المتأخرة ، في الشرق الادنى ، او الشرق الاقصى ، أو اميركا اللاتنية ولافرق في ذلك .

ولقد كشفت التجارب ، طيلة الخمسين سنة الماضية ، أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية ، وتحركت بعد تحقق وعيها الفردي والاجتماعي ، وقفت اليوم في صف القدرات التي تصنع الحضارة العالمية . لكن المجتمعات التي اقتدت بالحضارة الغربية ، دون وعي اجتماعي ، او شعور انساني بالوعي الفردي ، ودون عقيدة ، بل بمجرد نهضة كاذبة ، قد ظلت مستثمرة للحضارة الغربية ، مستهلكة على الدوام ، وخاضعة للذل والعبودية تحت سيطرة الغرب ، والامثلة والنماذج على ذلك متوفرة وكثيرة !!.

ان الذي أريد قوله : هو ان الدين[1] ، الدين الذي هو فوق العلم ؛ يعتبر الانسان ذاتاً أرقى وأشرف من جميع المظاهر الطبيعية ؛ هذا هو اعتقاد الدين ، واعتقاد « الاكزيستانسياليسيين » ايضا ، وسارتر نفسه ، الذي لم يؤمن بالله ، يعتبر الانسان ذاتا منفصلة عن جميع كائنات الطبيعة ، وعنده أن الانسان قطع حبل اتصاله بالسماء ،

---

(١) اردت بالدين ، غير الدين المتوارث حسب السنن والعادات ، لأن الأديان الوراثية كلها متشابهة ، ولأن الشيء الذي يُتخَذُ وراثة وسُنة واعتياداً من غير علم وبصيرة ، كيفما كان ومهما كان هو مردود . ولا فرق في ذلك بين الأديان والمذاهب ، حيث لا درجات في الجهل . لذا فإن البحث يدور على « الدين الأرقى من العلم » لا الدين الذي لُقِنَ تلقيناً ، وتسلمه الخلف عن السلف ، كمجموعة عادات وسنن تقليدية مكررة . ان الجيل الواعي يرفض هذا ، ولا يستمع له ، ورفضه شيء طبيعي ، وان لم يكن قد ألقى هذه السنن والخصائص الموروثة اللاعقلية في المهملات ، فإنه سيلقيها غداً . إن هذا شيء محتوم ، يفرضه الوعي . وتلك بادرة راقية اتطلع الى خط سيرها ، وأفكر فيه . يتمرد الجيل الوراثي الايراني ، على السنن اللاعقلية ، التي حُمِلَتْ اليه ، فيرفضها كلها اولاً ، ثم يصل الى مرحلة فارغة تماماً ؛ هي الوجل والاضطراب ، والبحث والريبة ، والحاجة الى استكشاف الطريق الذي يجده في النهاية . واكتشاف الدين بعد رفض السنن الوراثية المتحجرة ، هو الشيء الذي يحصل اليوم ، لا على مستوى ايران فحسب ، بل على مستوى المثقفين في العالم كله . انه الدين الذي يتجاوز الفلسفة والعلم والصنعة ، انه دين المعرفة والتنبه ، لا دين السنن الوراثية المنصرمة التي لا يُعْرف تاريخها ، أهو الى ما قبل الفي سنة ؟ أم الى =

ووكل امره الى نفسه ، فهو الذي يصنعها ، ويصنع مصيره وهو رب نفسه ، مسلط على الطبيعة ومسخر لقواها ، خلافاً لسائر الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة لها . ومن هنا ؛ الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة لها . ومن هنا ؛ نرى أن الدين « والاكزيستانسياليسم » و« الامانيسم » يلتقون في نقطة واحدة ، تعرف بأصالة الانسان ، ورجحان ذاته على جميع مظاهر الطبيعة .

لقد رفع الاسلام قدر الانسان ، وأكرمه الى حد قَصُرت ان ترفعه اليه المكاتب الاومانيستية المصرة على رفعه واجلاله ، حيث جعله الاسلام صفوة الله ، وخليفته بين الكائنات ، وسخّر له كل قوى الطبيعة ، وأمر ملائكته بالسجود أمامه ، والتسليم له بالعبودية . أما عمله كعمل الله تماما ، وبإمكانه ان يشابهه في العمل ، في عالم المادة وفي عالم-الطبيعة ، إن باستطاعته أن يكون خالقاً ، عارفاً ، مدبراً ومختاراً مطلق القيد من أي جبر . وهذه الصفات الخاصة بالله ، نُسِبَتْ للانسان في الاسلام بدرجات منخفضة . عارف ذو ارادة ، مختار خالق ، مغير متمرد ، ومسّخر لكل انظمة الطبيعة ، ومغيّر لمصيره التاريخي ولمجتمعه وحتى لذاته .

= زمان ناصر الدين شاه ؟! وكل ما في الأمر ، أنها اصبحت مقدسة لقدمها .

في كل يوم :

هذا الموجود ، ذو القيم الالهية ، يسعى خلف رزقه اليومي ، الرزق القاتل للانسان الحي ، انه الهوة التي تغور فيها أعز قيم الانسان الالهية كل يوم . الحياة اليومية ، تلك الدورة الرتيبة التي فرضت وجودها على كل المخلوقات ، من الجراثيم الى الحيوانات ، يقع الانسان في دورانها الأحمق ؛ يأكل وينام ، ثم يستيقظ ليكدح ويأكل ، ثم يعود يأكل ليكدح فيرتاح ، ومن ثم ليعمل وقت فراغه ، وكيفما نظرت تراه في دوران ممل ومتعب ، انتاج للاستهلاك ، واستهلاك للانتاج ، إنها مسيرة الانسان في وقتنا الحاضر ، وكذلك كانت في الماضي ، شرقياً كان أم غربياً ، وفي هذا الدوران الباطل تطرأ على الانسان مشاعر خاصة ! عقد نفسية ، ضغائن ، اهواء ، وآلام خاصة تُعْجِزُ الانسان النبيه . .

قد تشاهدون احياناً احدكم يشكو ويعتب ، ويضج ليعرب عن ألم هو مضحك جداً ! وينبغي أن نضحك من بلاهته !! ولو أعددنا قائمة بمجموعة الاشياء التي نتمناها في حياتنا اليومية ، او نأمل الحصول عليها لننعم بها ، او نغبط الاخرين لوجودها لديهم ، ونسعى للحصول عليها ؛ ولاحظنا ذلك بوعي وانتباه ؛ لاستنكرنا انفسنا ،

واستقبحنا وجودنا ، واستعبنا حياتنا ، لأن الانسان عندما يُدرك هذه الاشياء تدريجياً ، يدرك القضايا الخارجة عن اطار نفسه وبيته . فيشعر براحة مثلاً لشيء في بيته ليس له مثيل في بيوت الآخرين ، واذا ساعدته الظروف قد يتمكن من شراء قطعة قماش ثمينة ، او قد يتأخر في الحضور ، فيشتريها غيره ، ويلبسها في المحافل بدلاً منه ، وعندئذ تعلو الصرخة ، ويلاه !! ما أبأسه وما اشقاه ؟! . ثم ما أكثر اللذات والحسرات والتنهدات ، ومن ثم التضحية بكل شيء ، من أجل الحصول على أبخس الأشياء ! ان هذا الانسان ، الذي يختال فخراً ، ويعلو برأسه الى عنان السماء ، نراه يتقبل الذل الى حد يأباه الكلب ، من اجل أدنى رتبة وأحقر درجة ، بل وحتى من أجل خيال !! من هنا ، نعرف قابلية الانسان للصلافة والشقاء ؛ إنها ما وراء كل الموجدات .

وقد ترون انساناً يكاد أن يُصاب بنوبة قاتلة ، وهو من شدة الفرحه يجول في داره ويرقص ؛ لماذا ؟ لأنه لمح سيارة الرئيس في الدائرة صباحاً ، فرأى في نظرته اليه شيئاً من الرضى . نصف بسمة ظهرت على شفتي الرئيس ، كما تظهر على شفتي صاحب الكلب حينما ينظر الى كلبه ، حرّكت فيه اللذائذ ! . . . ولو اعددنا قائمة بأسماء الأشياء

التي نطلق عليها اسم اللذة ، الأشياء التي ما زالت تجول في أذهاننا ، ونسعى للحصول عليها ؛ مهما كانت ، لباساً ، سيارة ، داراً ، درجة دراسة ، او مقاماً لرأينا أي غالٍ ونفيس نضحي به من أجلها ! نضحي بالزمان والانسان ، بالذكاء والنباهة ، بالقابلية والفخر الالهي ، بامكانية التمرد ، بقابلية الاختيار الحر ، بقابلية قوة الرفض ،بقوة البناء والتشييد ، بقوة التغيير ، بقوة تبديل المصير ، بقوة الرفض لكل ما حملنا ، واستبدال ما نريد . نفدي كل هذه الأمور ، دون أن نشعر بها ، ودون أن نملك لحظة من الزمان من أجل ان نتأمل فيها . وهكذا ؛ نجد الانسان في حياته اليومية متجهاً الى خارجه دائماً ، ومقبلاً على ما يوفر له اللذائذ ، ومائلاً نحو شهواته ، ونجد « أنا » تلك التي هي من الله تهبط من العرش ، آلى الحضيض لتنغمس كالدودة في الماء المتعفن بالأقذار . ومن ثم ؛ تتقطع « أنا » ذات الوجود المتصل ، قطعة قطعة ، وتقع كل قطعة منها في مصيدة شهوة قذرة ، وهوى أجوف ، وأمنية سخيفة !! وحاصل ذلك ، التضحية بأعز الأشياء من أجل الحصول على أسخفها وأقذرها !.

هزة :

لا اريد ان انصح اخلاقياً ؛ فالانسان يمضي ليصير الى الفناء ، أما قيمة الانسانية فتزداد دماراً بمرور الأيام . ان

أكبر قيم الانسان ، تلك التي بدأ منها ، وهي الرفض و « عدم التسليم » وما يلخص بكلمة « لا » حيث منها بدأ آدم أبو البشر . لقد أُمِرَ أن لا يأكل من تلك الثمرة ، لكنه أكل ، فصار بعدئذ آدم ،وصار بشراً ، وهبط الى الأرض ؛ ولولا ذلك لصار ملكاً ، وصار غيره آدم .
وأول ما يبدأ آدم بهدمه في حياته اليومية هو التمرد ، التمرد الذي يجعله مشابهاً لربه في الكون ؛ لماذا ؟ قد يكون من أجل دَيْنٍ ، وقعّ للوفاء به سفتجات[1] على مدى سنتين او ثلاث او أربع ، ولا يمكنه الانكار بعد ذلك ، ولا يسعه إلا أن يقول ، عند المطالبة به ! سمعاً وطاعة ، لأن الدين موزع على سفتجات حسب راتبه وامكانياته . ومن هنا ، نرى ان صفته الالهية تذهب ضحية ثلاجة او دار او سيارة ، وهذا الانسان لا يدري أي شيء خسر ، وأي شيء ناله بدل الذي خسره ، ولا يدري بأي شيء يتلذذ ، وكم هو قدر لذته بنعمة السيارة التي ضمن من أجلها بعدم استسلامه ، وقابلية الوهيته ، وكونه خليفة الله في أرضه حتى يساوي لذة تمرده ورفضه . لا شك أن من أدرك لذة التمرد والرفض والنباهة لن يبدلها بأي شيء ، ولن يبيعها مهما غلا الثمن ، لكن ؛ ما الذي حدث حتى

---

(١) صكوك .

بدلنا ذلك بسهولة ؟! انه لا نباهة لنا ، ونحن لا نستقيم إلا بعد أن تعلونا يد قوية ، او يُظَلّلُ علينا بسوطٍ قاس . ان تلك اليد ترفعنا ، من غفلة شغلنا الاداري والعائلي ، وحتى من نومنا ، لنشعر بما مضى من الزمان ، وما فات من العمر ، وكم بقي منه ، وكم سوّفنا من الفرص ، وكم ضيّعنا من النعم والقيم لانشغالنا بغيرها . وبعد : ان تلك اليد تخرجنا من بين الأقذار ، وتجففنا تحت اشعة الشمس ،ثم تضربنا بشدة منبهة : ايها الانسان ! أنت ! أنت !!.

العبث

ولنضرب مثلاً ؛ هذا « ابراهيم الأدهم » . رجل لاخير فيه ، ولا معنى له ؛ ذو ثروة طائلة ، لكنه عاطل عن العمل ، ولا شغل له إلا الصيد . غيره يكدح ، وهو يأكل . ماذا يعمل اذاً ؟ إنه يذهب الى الصيد ، لقد اعتاد عليه حتى أَنِسَ به ، وصار همه الوحيد ، تراه يهش اذا اصطاد وحشاً ، فيمتلأ به سروراً وقهقهة . وقد لا تكون له حاجة بلحمه او بجلده ، سوى أنه يلتذ بذلك . إنه لداء قذر ان ينصرف انسان بتلك العظمة كلها ، الى عمل كمثل هذا لِيُشْبِعَ نزوة ويحقق هواً ، انها فلسفة حياة

« ابـراهيم الأدهم » ، إنها أسـطورة ، لكنهـا أصدق من الواقع .

وبينما كان « ابراهيم » في صيده ذات يوم ، وقفت فرسه في مكـانها ، ولم تتحرك ، كـأن شخصاً وقف في وجههـا ، واذا بصوت كأنه الرعد ، يشق مسامعـه : « يا ابـراهيم ، ألهذا خلقك الله ؟ » أحجم ابـراهيم وتنبه ، لسنـا واعيين لأمور ننسبها الى انفسنـا كذباً ، وفي الوقت نفسـه ، نحن محـرومون أكـثر من أي شخص ، وقف ابراهيم ، وكـأنه لأول مـرة تعرف الى شخص ، أطلع عـلى وجود عـظيم ، وهكذا وقف « ابراهيم الادهم » وتـراجع ، ورجـع انسانـاً يشعـر الواحـد امام رفيـع درجته ، وعلو مقـامـه بـالصغـر والحقارة .

المتنعم بالذّل :

هكذا كان ! اميراً يعيش في قفص أُعِدَّ له من الذهب ، كل شيء حوله قد هُيِىءِ له ، لقد عملوا له غابة ، وضعوا فيها صيداً ليكـون جاهـزاً له متى أراد ، وفي مكـان آخر ؛ كانت مسابح ، وحول كل مسبح شجـرة من النيلوفر بلون خاص : حدائق ، قاعات ، ملاهٍ ، راقصات ، وذات يوم خرج هذا من القفص ، فرأى ميتاً ، فسأل :

- ما هذا ؟
- هذا مصير الانسان !
- وأنا ايضاً !
- نعم !
- ما هو الموت ؟
- الموت حالة تصيب كل حي في نهاية عمره !
- وبعدها كيف يكون ؟
- كل واحد ، يتبدل الى جيفه ، مهما كان ، واينما كان !
واذا ، حدث ورأى مريضاً ، قال :
- من هذا ؟
- مريض !!
- ما هو المريض ؟
- المرض عرض يصيب الانسان ، قبل موته صغيراً كان
او كبيرا ، قوياً او ضعيفاً !
- يصيبني انا ايضاً ؟
- نعم ! المرض لا يهتم بحصار ولا جدار ولا حاجب !
وبعد غدٍ : قد يقول :
- من هذا ؟ المنحنية قامته ؟؟
- هذا شيخ عجوز !
- هو مصير محتوم لكل انسان !
- وحتى لي انا ايضاً ؟

- نعم ، حتى أنت !!

وفي آخر ، قد يسأل :

- من هذا ؟

- هذا سائل مسكين !

- ما هو السائل المسكين ؟

- هو الانسان ، ذو الفاقة ، الذي لا يملك إلا جفنة الشحاذة ، ليكون طفيلياً عند هذا وذاك ليشبع بطنه

إن هذه الصدمات الاربع ، تنبه ذلك الرجل الذي يسرح ويمرح في جنته ، غير منتبه ؛ يعيش في هدوء ورفاهية ، وهو من كل شيء في جهل تام . هذه الصدمات الاربع التي لا تعرف اميراً ولا « بودا » تنبهه . فيدرك فجأة في أي راحة قذرة هو ، ووسط أي لذائذ مجوفة كان يعيش، حتى نسي في غوغاء تلك اللذات ثروات مجهولة ، وعندها يتمرد ، والشيء الوحيد الذي يستطيع فعله ، هو أن يفر « منها » جميعاً ، ودون حسرة للعودة ، او تفكير في عطش ، او حاجة للحياة في قصر بنارس ! حراً ! حراً ![1] كرأس شجر الخيزران طليقاً من قيد الاعوجاج ، وانت الذي في أسر بيتك وثروتك وسعادتك ، كشجرة مليئة بالثمار ، وقد تدلت أغصانها الى الارض ، وأوشكت على

---

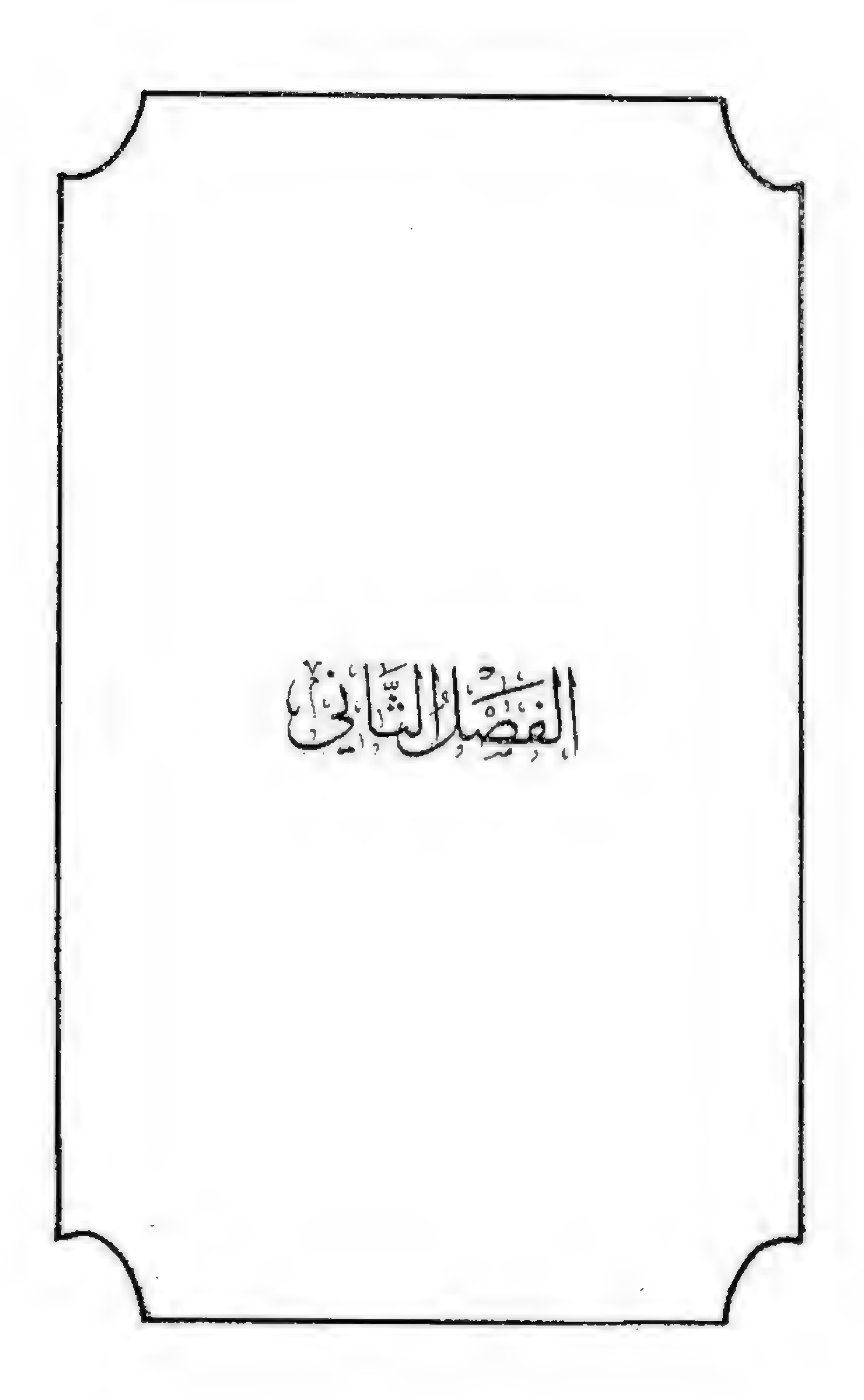
(١) هذه نص عبارات بودا نفسه .

الانكسار ، لكن رؤوس أغصان شجر السرو الممتدة نحو الشمس لا تخضع لثقل حمل !! وأنت أنت !! يا من تجلى الله فيك ، انت يا من خصيصتك ال « لا » انت ! كالنيلوفر تحت أشعة الشمس ، تشع داخل مجهول لا تعلمه ، فاجعل وجودك ثميناً ، وانبذ كل المظاهر والاهواء التي مزقت حياتنا اليومية، فذهبنا ضحية شهواتنا وأحقادنا وحسراتنا ، جانب تلك الامور السخيفة المحقّرة للانسان ، التي جعلته لعبةً ، وجسدت فيه خصائص حيوانات كالفأر والذئب والخنزير . حيث نسي سيادته وعزته وألوهيته ، وكونه خليفة الله في أرضه ، نسي قابليته وقيمته التي لم تُعْطَ لغيره ، وراح يستهلك نفسه ، ويُذِلّها ويعبِّدها لغيره ، ويتملق بسهولة ، غيرَ شاعرٍ أنه يضحي بكل انسانيته ، بالثناء الكاذب على غيره ، من أجل الحصول على بغيته . لكن الذي يُطاطىء رأسه ويتملق له ، فانه لا يعود انساناً !! انه لم يشعر بعد ، أنه في تعبده وخضوعه لغيره ، يخسر شيئاً لا يعرف ثمنه !!

امثال وحكم :

كان أحد المدرسين ، يعظني مواعظ مليئة بسوء الادب ، لكنها ، بليغة جداً . كان يعظني ويقول : إنه لا ينبغي على الانسان ان يكون شديداً على الآخرين ، بل

عليه ان يكون ذكياً محافظاً على منفعته ، فلا يُسوِّف الفرص . ومضى يقول : ان شخصاً آخر كان ينصحه ، ويقول : ان هذه اللحية ، (اللحية من علائم شرف الرجل ووقاره) ليست ذات اهمية ، وقد تقضي الظروف والمنافع أحياناً ، ان يضعها الانسان في ما تحت الحمار ! أجل . . من أجل المنافع ، ثم يُخرجها فيغسلها « بالشامبو » والصابون ، ويُعَطِّرُها ، حتى تعود لحية ولا شيء عليها ! ولم ينقص منها شيء ؛ بل تكون قد قضت حاجته ايضاً ! هذه هي فلسفة حياتنا قد ظهرت بوقاحة ، لكن أعمالنا بدت أوقح منها !! .



الفصل الثاني

إن الشيء الذي يدفعني الى نفسي ، ويدعوني دائماً من خارج هذه المشاغل ، التي غالباً ما تجعلني ضحية لها ، هو (النباهة الفردية) . أوالنباهة النفسية تلك التي تدفعني كل حين ، لأرى نفسي ، مع أنه ليس من أحدٍ ، يرى صورته الحقيقية نصب عينيه ؛ حتى اولئك الذين يقفون أمام المرآة ثلاث او أربع ساعات كل يوم ، ما اتفق مرة أن رأوا أنفسهم ! فالمعرفة النفسية إذاً ، او الدراية الفردية أو النباهة الموجودة عند الفرد ، بالنسبة لنفسه ، هي فوق معرفة الفلسفة والعلم والصنعة . فالأخيرة معرفة ، لكنها ليست « معرفة نفسية » أي ليست الشيء الذي يريني نفسي على حقيقتها ، فيستخرجني ليعرفني ذاتي ،

وباختصار ، ليست الشيء الذي يلفت انتباهي الى قدري وقيمتي . حقاً : إن قيمة كل واحد منا على قدر ايمانه بنفسه . ولو نظرنا الى انظمتنا التربوية والاجتماعية ، لرأينا مأساتنا بوضوح ، فكم حقرونا في هذا المجال ؟! لقد أذلونا الى حدٍ ، بتنا معه لا نؤمن بقابليات قدراتنا ذاتها ، أصبحنا نرى انفسنا في عجزٍ تأباه حتى فراخ الحيوانات !! فنحن عاجزون عن الانتقاد ، عن الاستفسار ، وحتى عن الكلام ! صرنا ، لا نجرأ ان نتصور اننا قادرون على أي عمل صغير ! نعم .. بلغنا هذا المستوى من الضعف وعدم الثقة بالنفس !! ولا شك ، أن الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه ، يكون حقيراً ايضاً ، فسياسة الاستعباد ، حتى يظن هذا الاخير نفسه من أسرة منحطة ، وطبقة دنيا ، فيسهل عليه عندئذ تقبل المذلة بصدرٍ رحب ، ويلجأ مستسلماً الى حضن الرق والعبودية .

أصغر فأصغر :

... ماذا عمل بنا الغرب نحن المسلمين ، نحن الشرقيين ؟ لقد احتقر ديننا ، أدبنا ، فكرنا ، ماضينا ، تاريخنا وأصالتنا ، لقد استصغر كل شيء لنا ، الى حد أخذنا معه نهزأ بأنفسنا !! أما الغربيون فقد فضلوا أنفسهم وأعزوها ورفعوها ، ورحنا نحن نقلدهم في الأزياء

والأطوار والحركات والكلام والمناسبات ، وبلغ بنا الامر أن المثقفين عندنا صاروا يفخرون بأنهم نسوا لغتهم الاصلية !! ما هذه السخافة ؟ هكذا يفخر الانسان بفقد شعوره ! إنه لأمر عجيب .! أفلا يكفي الواحد منا فخراً أنه تعلم اللغة الافرنجية ، حتى يفخر ايضاً بأنه نسي لغته الأصلية !؟ وما أشبهه عندئذ بالطفل ، الذي تهينه أمه ، وتضربه فيلجأ اليها ليأمن سخطها ! هكذا يلجأ العنصر الذي يعتبر نفسه راقياً ، والشعب الذي يعتز بتمدنه وحضارته لتحقير أقوام أخرى ، لأجل السيطرة عليها واستعمارها ، يعمل الأجنبي إذاً على تحقير دين الشرقي ، وايمانه ، أدبه وفكره ، كبار رجاله ، ماضيه وكل ما لديه ، حتى يفر المهان من تلك الأمور التي سببت اهانته ، والاستخفاف به ، ويلجأ الى المصدر الذي شنَّع عليه وأعابه ، فيُخْرِجَ نفسه على شاكلته ، لئلا يقع في إطار تُهَمِهِ وتشنيعه .

ومن هنا نرى أن بعض الأشياء نموذجية ! ١٥ ٪ من مجموع الأوروبيين يأنسون مثلاً بالتلحين الكلاسيكي ، أما الايرانيون فكلهم يحفلون بجميع انواع التلحين ! ومن الذي يجرأ ألا يأنس ، فيخالف نموذج الطبع الأفضل ، والذوق المفضل ؟؟ وللأفرنجي أن يُغْرِبَ عن رأيه

بسهولة ، ويقول : اقطع صوت الراديو ، لأي شيء ؟ لأنه نموذج من المثل الأعلى !

إن الايمان بالنفس ، يوفر للانسان شيئاً واحداً هو « الوعي النفسي » ، هو أن يعرف في الدرجة الأولى ، لأي عرق وأصل ينتسب ، وبأي أمة يرتبط ، والى أي تاريخ ، وأي حضارة ، وأي فترة زمنية ، واي أدب ينتمي ، والى أي مجدٍ وقيم يمتّ !! هذه عودة الى « الوعي النفسي » وفوق هذا ، الى « الوعي الوجودي » الوعي الذي يجعلني اشعر بنفسي ، كموجود انساني في ذروة الوهيته . وهكذا ؛ عندما أجد نفسي بتلك المظاهر ، أعرفها تماما ، وآنسُ بها ، ولا أعود أتخلى عنها بأي ثمن ، ولا يعود ممكناً ، المساومة على جزء من لحظات وجودي ، وخصوصاً إنْ عرفتُ من « أنا » ! هذه ال « انا » . تكون عظيمة بعظمة الكائنات ، إنْ هي اكتشفت نفسها قليلاً ، وبلغت « وعيها النفسي » .

مجتمع النباهة

المسألة الثانية ، التي اسميها « ثقافة » هي الوعي السياسي بالمعنى الافلاطوني للسياسة ، لا بمعناها الصحفي اليومي ، بل بالمعنى الافلاطوني للبحث المنتخب الأختياري . أي شعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي

والاجتماعي للمجتمع ، وعلاقته به ، وعلاقته بأبناء شعبه وأمته ، والشعور بانضمامه وارتباطه للمجتمع ، وشعوره بمسؤوليته كرائد ، وقائد في الطليعة من أجل الهداية والقيادة والتحرير . وكل هذه بمثابة مسؤولية ثانية للانسان ، حيث ثقافته في ثباته ، وتحصينه ضد الاستلاب .

مراوغة

النباهة إذاً نباهتان : « نباهة نفسية او فردية » و « نباهة اجتماعية » . وهي التي يأتي بيانها الآن . فعدوي انا كانسان ، وعدونا نحن كمجتمع انساني او عقائدي ، هو الذي يسلب منا الوعي الأول ، والوعي الثاني ، ولا يعوضنا عنهما إلا جهلاً وفقراً وذلاً ، وحتى ، لو عوّضنا معرفة ، فهو عدو ، لأنه يعطينا معرفة فلسفية او فنية او علمية ، ويستلب منا عوضاً عنها النباهة النفسية ، والنباهة الاجتماعية أيضاً ، تلك النباهة التي اختص بها الأنبياء في التاريخ[1] ، يستلبها ، أو يعمل على تضعيفها فينا ، لا

---

(١) ما كان الأنبياء فلاسفة ، ولا فنيين ، ولا أدباء ، ولا شعراء ، ولا علماء جمال ؛ بل كانوا أميين من عوام الناس ، لكن ، لديهم نباهة ووعياً لزمانهم ، ومن اجل هذا شرعوا مسيراً للتاريخ ، وحركة ، فصنعوا حضارة ، وغيروا مصير مجتمعهم أكثر من أي حكيم ، وأحسن من أي ذي فكر ، وأي عالم ، وأكثر من أي كاتب وأديب . هذه المعرفة النسوية يمكن ان تكون حتى للفرد =

فرق ، فإن علمنا ذلك ، فإن سائر القضايا تكون واضحة ، وسنفيد في تخمين ومقايسة كل الأمور التي تحيط بنا .

لم يعد العدو كالسابق ، فهو لا يأتينا بعدَّة حربه ، كالخوذة والسيف ، يقتل ويذبح ، ثم يعود من حيث جاء فتعرف بسرعة أنه عدو . لا ، ليس كما تظنون ، إنه يظهر من أكمام ثيابنا ، نعم يظهر من كم الثوب ، لا ، كما مضى حاملاً سوطه ، يسوقه الناس الى صناديق الاقتراع لأخذ الرأي ، لقد اختفى ذلك السوط ، وصار في دماغ العامل ، يسوقه نحو صندوق الاقتراع ! وقد سواه على النحو الذي يمكنه من أن يصوّت بحرية ، لأي شاء . وإن كان من غير الواضح بعد ، كيف يختار العامل بين « غولد ووتر او جونسون » نعم ، إنه حر في تصويته ، لكن لايريد غير هذين الاثنين ! وستكون النتيجة واحدة لأيهما شاء ان يصوت !! .

اللعبة التوقيتية :

أقول : إنه كما تُصْنَعُ الأواني اليوم من مادة المطاط ، بعد وضع مادتها الخام في جرة ، فتذوب ، ثم تُصَبُّ في

=الأمي ، ويمكن ان يكون الانسان عالماً بالمعقول والمنقول ، ولديه العلوم الحديثة والقديمة ، لكنه بعيد عن تلك المعرفة النبوية الاجتماعية .

حُفَرٍ أُعدت على أشكال الأواني ، لِيُسْتَنْتَجَ منها الابريق والقدح والكأس وغير ذلك من الأدوات التي تُعْرَضُ في السوق للبيع ؛ هكذا أخذوا يصنعون الانسان ! يصنعون الجيل ! تَعْقَدُ جلسة مشتركة لعالم النفس ، وعالم الاجتماع ، والمؤرخ ، وعالم الاقتصاد ، وخصيص التربية والتعليم ، يجلس هؤلاء معاً ، يتذاكرون فيما بينهم ، تمدهم الثروة ، وتساندهم القوة ، ويُطلب منهم :

- خططوا !
- سمعاً وطاعة ، لكن ؛ أي انسانٍ تريدون ؟ تفضلوا كي نعمل !
- نريد في هذا المجتمع ، الافريقي أو الأسيوي أو الاميركي اللاتيني ، جيلاً غير قديم ، لا يكون ابله يُخضب رأسه بالحناء ، لكن ليس عندنا حناء لدينا ، أدوات للزينة ، نريد أن نوزعها هناك فلا يبقى منها شيء ، نعم ! نريد جيلاً لطيفاً ظريفاً جميلاً ، عارياً من الشعور تماماً طبقاً للمقاييس العالية ! نعم هذا الذي نريده لا أكثر ولا أقل !
- سمعاً وطاعة ! سيكون بعد أربع سنوات جاهزاً ، ونضعه في تصرفكم ! وفجأة ، وخلال عشر سنوات من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٥٥ ، ترى أن مقدار أدوات

الزينة الأوروبية ولوازمها قد ارتفع في طهران الى خمسماية ضعف) .

- جيد ، كيف نصنع هذا الجيل ؟

- نحتاج الى جيل يرفض الشكل القديم للحياة ، وينكره ، ذي فكر جديد ، لكن ، بالقدر المعتاد لا أكثر . لأنه إذا ازداد تجدد فكره ذرة واحدة سيكون مضراً !! والمطلوب ان يكون له طبع لطيف فلا يشرب اللبن ، بل يشرب . . . . الكوكاكولا .

الى هذا الحد فقط ، وإذا تجاوز هذا المقدار ، فإنه يسبب لنا المخاطر والمشاكل ، ويحملنا المبالغ الكبيرة ! نعم ، هذا المقدار يكفي ! يكفي أن يتجدد الى حدٍ يكون معه لطيفاً ، فيخلع الأزياء القديمة ، ويلقيها في سلة النسيان لكن ، لا يتجاوز شعوره الى حد يجعله يبتدع أو يختار نوع أو لون أزيائه من تلقاء نفسه . وكأنهم يقولون : إن الأمر لا يرتبط بك ، فأنت لست انساناً حتى تختار !! قلنا ، إخلع ملابسك فقط لا أكثر . . . ! نعم ، يكون تجدده الى حدٍ اذا قلنا معه « هو » وإنْ قلنا « ها » رَدَّدَ هو ايضاً « ها » « ها »! عليه ألا يفوه بكلمة من نفسه ، هكذا نحتاجه نحن !!.

ـ سمعاً وطاعة ، سنصنعه كما تريدون تماماً ، بلا اختلاف !.

ويُصْنَعُ ذاك الانسان ، يُصنع على شكل يُضْرَبُ فيه المثل ، وعلى نحو الذي يبيع الثلاجات في الاسكيمو ، يبيع التمر في حجر ، ويبيع سيارة الرينو المصنوعة من الذهب لرئيس قبيلة أفريقية ! وهكذا ، يصنعون سيارة الرينو على ظهر جمل ، ويحملونها الى رئيس قبيلة ، حيث لا توجد في ارضه جادة بطول كيلومترين اثنين ، فتربط السيارة أمام قلعته ، نعم هكذا يصنعون !! ونحن ، لم نشعر بعد كيف صار الأمر ، حتى بلغنا بعد عشر سنوات تلك الحالة ، ولم نُدرك ما خسرناه مقابل هذه التغييرات والتطورات ! وأي شيء هنا ، يمكن ان يلفت انتباهنا الى أن هذا الانسان الله ، قد بلغ من الانحطاط حداً جعله يحفل بالرذائل ويأنس بها . نعم ! أي شيء يمكن ان يلفت انتباهك ـ ايها الانسان ـ الى ما ضحيته مقابل هذه الأُلْهيات والأُلْعُوبات ؟! واذا كانت العين والشعور والمعرفة ، وكل المحاسن والمقاييس تردنا منهم ، فنأنس باللون الذي يريدون ، ونستذوق الطعام الذي يألفون ، فمن الذي يقدر إذاً أن يُشْعِرنا بالذي خسرناه ؟ والذي بقي مجهولاً مقابل تلك الأمور ؟.

ان الوعي النفسي « النباهة » يمكن أن تُشْعِر الانسان بما فات منه ، هذا الانسان ، الذي تجاوز الحد في الاقتداء والاستهلاك لكل ما يقدم له ! ويمكن ايضا للوعي الاجتماعي ان يُشْعِره كيف تجري أمور مجتمعة في الخفاء ! نعم ! ان الدرايتين النفسية والاجتماعية هما الشيء الوحيد الذي باستطاعته ان يُنجي الانسان من هذه البلاهة المتطورة الحديثة المغرية . حقاً ، ونحن نسمي الدراية النفسية نباهة فردية ، والدراية الاجتماعية نباهة اجتماعية .

عون الظلمة :

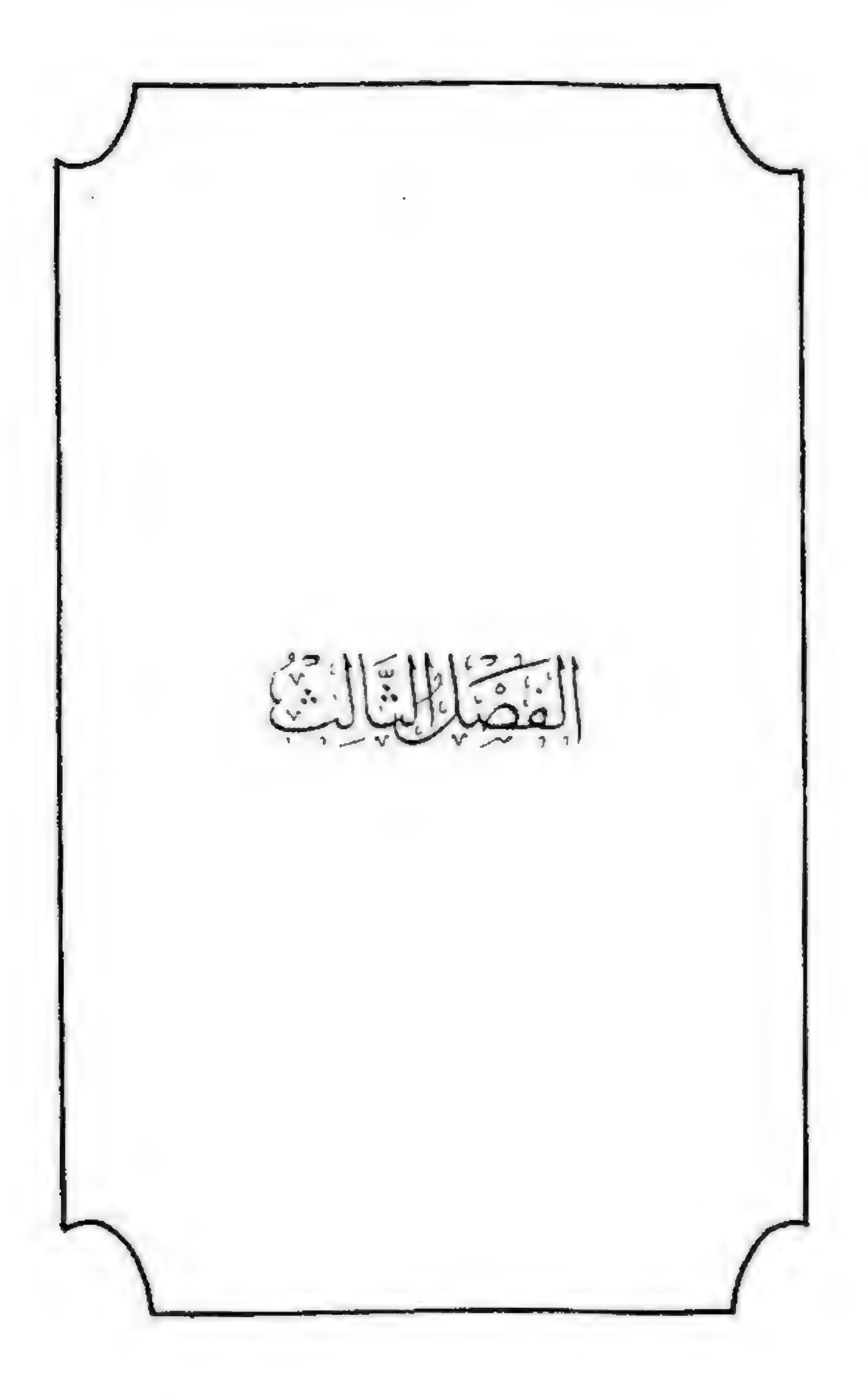
مهما تطور الفن - الصنعة - فإنه ليس إلا طريقاً للتعجيل في خسارة الانسان ، وفقدانه نباهته الانسانية والاجتماعية ؛ والشعب الذي يفقد هاتين النباهتين ، يصبح مهندسه خير وسيلة لاستيراد البضائع الغربية الى بلاده ، وفنه دلّال ظلم يمهد الطريق للاستعمار ، وعالمه موظف أجير بالقوة والمال ، يستمد فكره ونهجه في التحقيق من الأجنبي داخل البلاد وخارجها . وهكذا ، نرى أن أدمغة العالم الثالث ، تنقسم الى قسمين ! قسم منها يصدر الى الخارج ، ليستهلك في تلك الأجهزة العظيمة ، باذلاً نبوغه وقابليته في خدمة الأجنبي ، غير

عابىء بما قد يخسر ، مقابل ألفي تومان تُضافُ على الراتب !. وقسم يعود الى البلاد ، ليشكل الدعامة الخامسة للبلاد ، للاستهلاك الأجنبي ، وهكذا تُصبح مهمة الأديب والمحقق والفيلسوف استنزاف الأفكار و تحجيرها ، وتغيير الأذهان وتحريفها ؛ ويقوم الفنيون والفيزيائيون والكيميائيون بمهمة تسمينهم !!

قبل ثلاثين سنة ، لم يكن في افريقيا مهندس افريقي واحد ! ولذلك ، كان المتمولون الفرنسيون ، وأصحاب رؤوس الأموال يأتون بالمهندسين من فرنسا ، ويُجرون لهم شهرياً خمسين الف تومان . اما الان ، وقد شاء الله ان يكون بين الأفريقيين مهندسون منهم ، يصلحون لنفس العمل ، الذي كان منوطاً بالأجانب ، فإنهم يتقاضون ألفي تومان فقط !

إن الشيء الذي ينجي الانسان والأمة من شؤم الاستنزاف الفكري في طريقته القديمة والحديثة ، هو النباهة الانسانية ، التي يتحدث عنها الدين الراقي الذي تجاوز العلم ، والدراية الاجتماعية التي تتحدث عنها الرسالة العقائدية النبوية . وينبغي ان تكون هاتان الدرايتان مقياساً لكل انسان ، وبالأخص للعالم الثالث ، وفي المجتمعات الشرقية والاسلامية . وهؤلاء جميعاً

سيخسـرون إذا ما نـظروا للمسائـل بغير هـذا المقياس .
فالمزورون اليوم ليسوا ألعوبة ، إنهم يصنعون في الاساس عيناً ونظرة ، ولذا ، فالافلات من مصائدهم ، والخروج من مضايقهم ، وكشف مخططاتهم ، يستلزم لـلانسان ان يبصر . ويعلم في أي مؤامـرة غـريبـة معقـدة يـدور ، وبعدها أي شيء يريدون فعله بهذا الجيل !! ومن يغفـل عن هذا ، سيكون ضحية لمدية في ايديهم ، يُسَرُّ لطغـطهم عليه ، ويرقص لذبحهم إياه ! إن بلاهة وحمـاقة مـدهشة للغاية ، كمثل هذه تُصيب الأجيال في العالم أجمع ، حتى في الغـرب نفسه ايضـاً ! . لكن الناس هنـاك ، هم غـير تلك الأيدي والضمائر التي تقرر المصير في الشرق .



الفصل الثالث

الاستحمار

لا بد من مقياس للتطبيق ؛ فعينان ونظرتان ، ودراية انسانية ودراية أجتماعية . وأي دعوة أو دعاية ، أي كلام او تقدم ، أي حضارة او ثقافة وأي قدرة تكون خارجة عن اطار هاتين الدرايتين ، ليست إلا تخذيراً للأفكار ، للانصراف عن الانسانية والاستقلال والحرية . وهذا التحذير وهذا الانصراف هما تسخير للانسان كما يسخر الحمار ، ومن هنا أطلق على هذا العمل اسم « الاستحمار » .

أما الدافع لهذا الاستحمار ، فقد بلغ في زماننا درجة من القوة والشيوع ، لم يسبق لها نظير على مر التاريخ ، كان الاستحمار في الماضي وقفاً على نبوغ المستحمرين

وتجاربهم ، أما اليوم ، فقد أصبح معززاً « بالعلم » «بالاذاعة والتلفزيون » ، « بالتربية والتعليم» وبجميع وسائل الاعلام ، بالمعارض وبعلم النفس الحديث ، بعلم الاجتماع ، وبعلم النفس التربوي ! صار فناً دقيقاً مجهزا بالعلم ؛ ومن هنا تصعب معرفته لصعوبته ودقته .

إن أي قضية ، فلسفية كانت او علمية ، أوفنية ، وحتى لو كانت قضية تقدم المجتمع والحياة ، فإنها إذا كانت منحرفة عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية »، تظل دعوة كاذبة غاشمة مزورة ، عاقبتها الغفلة والذل والعبودية . وما الفرق بين ان يكون الانسان « عبداً حديثاً » او ان يكون « عبداً قديماً » ؟ وبين ان تكون تلك « جارية حديثة » او « جارية قديمة » ؛ لافرق إلا في الكلمات ، فذاك يسمي الجارية « ضعيفة » وذلك يسميها « لطيفة » ، والمعنى واحد ، انها ليست بشراً .

فمعنى الاستحمار إذاً في تزييف ذهن الانسان ، ونباهته وشعوره ، وتغيير مسيره عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » . وأي دافع ، لتحريف الفرد أو الجماعة عن هاتين النباهتين ، او أبعد منهما ، هو دافع استحمار ! وإن كان من أكثر الدوافع قدسية . وما البعد

عن هاتين كذلك ، الا وقوع في العبودية ، والذهاب ضحية لقوة العدو ، والاستحمار المطلق .

إنه لمن سوء الحظ ، ألا ندرك ما يُراد بنا ، فَنُصْرَفَ عما ينبغي ان نُفَكِرَ فيه كأفراد ومجتمعات ، فيُصيب غيرنا الهدف ، ونحن لا نشعر ! ومن أجل هذا قلت ، إنك إذا لم تكن حاضر الذهن في « الموقف » فكن اينما اردت . والمهم أنك لم تحضر الموقف ، فكن اينما شئت ، واقفاً للصلاة ، او جالساً للخمرة ، فكلاهما واحد .

ان المستعمرين قد لا يدعونك دائماً الى ما تشاء منه ، حتى لا يثيروا انتباهك ، فتفر منهم الى المكان الذي ينبغي ان تصير اليه ! بل هم يختارون دعوتك حسب حاجتهم ؛ فيدعونك احياناً الى ما تعتقده امراً طيباً من أجل القضاء على حقٍ كبير ، حقِ انسان او مجتمع ، وقد تُدعى لتنشغل في حق آخر ، فيقضون هم على حق محقٍ آخر .

عندما يشب حريق في بيت ، ويدعوك أحد للصلاة ، والتضرع الى الله ، ينبغي عليك ان تعلم أنها دعوة خائن ، لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق ، والانصراف عنه الى عملٍ آخر ، هو الأستحمار ، وان كان عملاً مقدساً .

وقوفاً في الصلاة ، او انشغالاً بمطالعة أحسن الكتب العلمية والادبية ، أو مناجاة مع الله ؛ وأي شيء تنشغل به في هذا المجال ، يفيد أن المسبب قد استعمرك . وإن أي جيل ينصرف عن التفكير في « الدراية الانسانية » كعقيدةٍ واتجاه فكري ، ومسير حياتي ، وتحركٍ مداوم الى أي شيء حتى ولوكان مقدساً ، هواستحمار. وقد لا يدعوك الاستحمار الى القبائح والانحرافات أحياناً ، بل بالعكس ، قد يدعوك الى المحاسن ، ليصرفك عن الحقيقة التي يشعر هو بخطرها ، كيلا تفكر أنت بها ، فتنبهك الناس وهنا يغفل الانسان ، ويتجه نحو « جمال العمل » ، ولطافته غافلاً عن الشيء الذي ينبغي أن يَعِيَه ، وهذا هو الاستحمار من طريق غير مباشر .

من التاريخ :

اتخذ بنو العباس سياسة غريبة في تاريخ الاسلام ، فقد كان المسلمون قبل خلافتهم ، إذا أحسو بخطرٍ يتهددهم ، أو رأوا ظلماً من الخليفة أو قرابته ، عطلّوا أشغالهم ، وتركوا الاسواق ، وهرعوا الى المساجد ، يصيحون ويستغيثون ، ويدعون الخليفة للمحاكمة والعدل ! كان هذا شعور المسلمين الاجتماعي ، زمن النبي (ص) وفي عهد ابي

بكـر وعمـر وعـلي ، وحتى على عهـد بني أميـة ! ومن الـواضـح ، أنـه لايمكن حكم أنـاس كهؤلاء بـالسهل والدعة ، حيث يصعب الظلم ، والسيطرة عليهم مع هذه الجرأة والجسارة ! لقد كـانـوا أهـل درايـة اجتمـاعيـة وانسـانية !! . لمـاذا ؟ لأنهم مسلمون ملتـزمـون اجتمـاعيـاً بشدة وحرص ، اذا سمعـوا الآذان هرعـوا الى الصـلاة ، ليحاسبوا أنفسهم ، ويفكـروا في مصيرهم ؛ . وحينـما رأوا الخليفة عمر ، ذلك الامبراطور الذي فتح لهم مصر وايران وبـلاد الروم ، يـرتدي ثـوباً ، من الغنـائم الحربيـة ، وهو أطـول من اثوابهم بقليـل ، علت أصواتهم بـالمعـارضـة ، وتقسيم الغنائم بالمساواة ، لقد صاحوا : لأي شيء ثـوبك أطـول من ثيـابنـا ؟ وهم لا فـرق عنـدهم بـين عمـر ، أميـرهم ، أمبراطـور الشرق والغـرب ، وبـين جنـدي من الجنود . لقد أجبروه على المحـاكمة لأول مرة ، وبدلاً من الثنـاء عليـه ، واجـلالـه لفتـح ايـران والـروم ، طـالبـوه بـالعدالـة !انـظر الى شعـور تلك الأمـة ، والى اهتمـامهم والتـزامهم بمصيرهم ، وهم يستـطيعون ان يـرفعـوا ايـران المتحضرة في العهد الساساني بـأطراف أصـابعهم ، ويلقون بهـا اينما شـاؤوا ، وفعلاً قلعـوها ، ولا يُعلم أين ذهبت ! ولهـذا كانـوا قادرين عـلى فتـح بـلاد الـروم كلهـا ، ولقـد استطاعوا فتح مصر ، واخضاعها بثلاثة آلاف رجل .

أناس يغيرون مجرى التاريخ ، ويهتمون بمصيرهم بدقة وولع !! لقد أجبروا عمر على الحضور الى المسجد ، ليجيب الناس بنفسه من غير ممثل او ناطق عنه ! ومن ثم ، يأتي بابنه عبد الله شاهداً معه ، ليخاطب الناس ويقول : ان سهمي من القماش لم يكفني ثوباً لطول قامتي ، وقد أعطاني ابني عبد الله سهمه من القماش ، فاضفته لصنع ثوبي هذا ، وباستطاعتكم ان تفتشوا ، وتبعثوا وكلاء منكم ، لتتحققوا كيفما شئتم ؛ فإن عبد الله ليس عنده من هذه الغنيمة . . . وهكذا رأوا عمر بعد التحقيق .

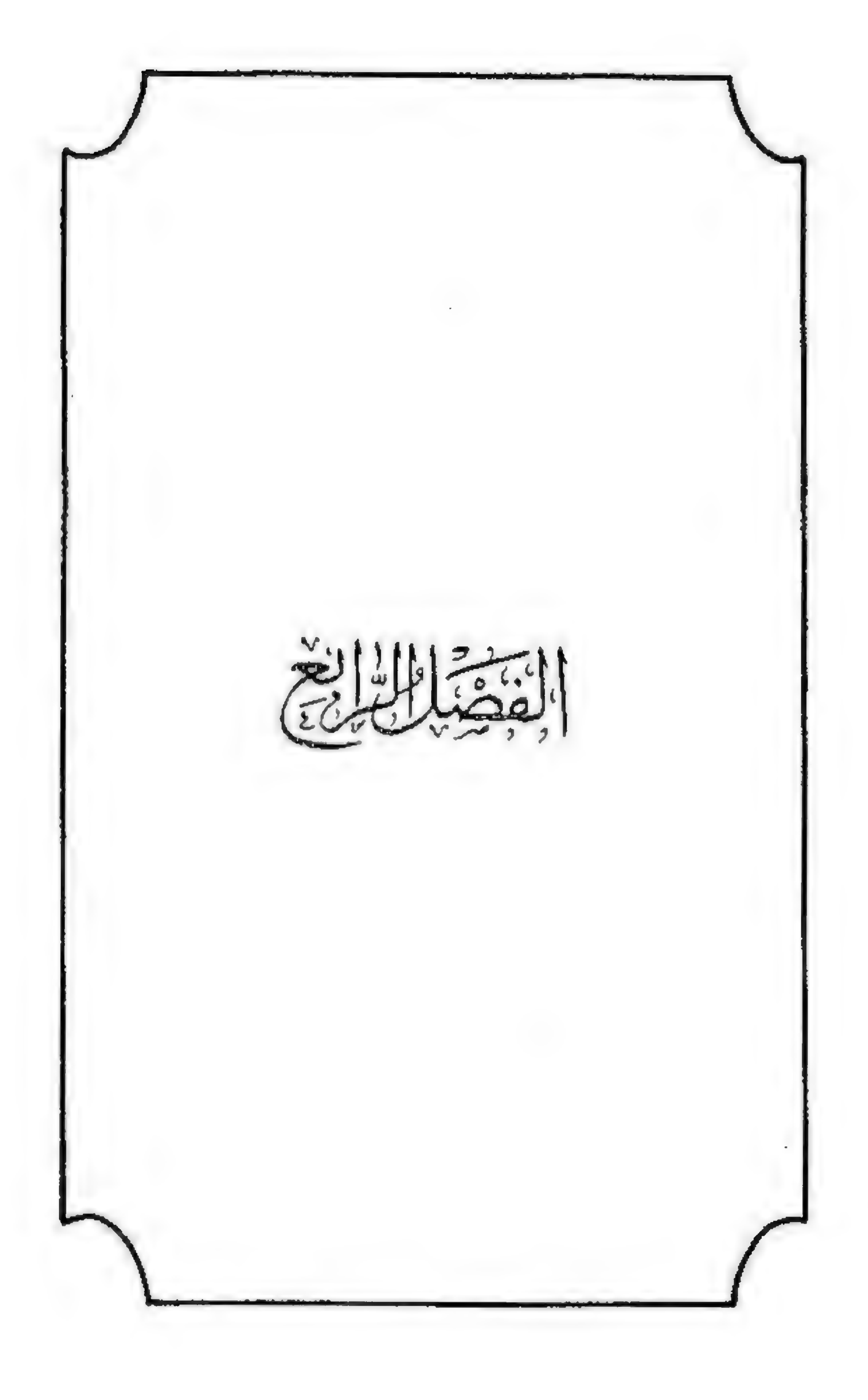
واضح إذأنه لا يمكن حكم هؤلاء بسهولة ، ولا بد من استنزافهم تلك « الدراية السياسية » التي يذكرها افلاطون ، وسلبهم تلك « الدراية الاجتماعية » النبوية النيرة التي ذكرتها . واذا سُلِبَتْ هذه ، لا يبقى بعدها شيء ذو خطر ، وإنْ شاؤ وا انْ يكونوا علماء أو فلاسفة ، فليس بذي اهمية ، حيث نصفهم كأبي علي ابن سينا والنصف الاخر كالحلاج وجميعهم ليسوا سوى خدمٍ للخليفة . وهل كان ابن سينا ، الرجل الذي طبّقت شهرته الآفاق ، غير قلم كاتب « لجلالة الخاقان » ؛ واضح ، أنه لو لم يكن ذا شعور لكان أفضل ! نعم . هكذا يصير الانسان إذا لم يكن له هدف ، ولا يفيده علمه ولا فنه ولا مكانته .

وماذا عن كبار علماء الفنون الجميلة ، وأهل الصنعة ؟! تراهم يصنعون « عالى قابـو » ويصنعون « الف ليـة وليلة » في دار الخلافة في بغداد !! طبيعي أنه لـو لم يكن لنا لكـان افضل ! إذ ، ما هي فائدة هذا الفن ، وهذا العلم ؟!.

وبعـد . . يـأتي زمـان بني العباس ، ويتـزوج جعفـر البرمكي العباسة ، وتُعْمَلُ وليمة الزفاف ، لقد طبخوا من الطعام ، ما أُخْرِجَ باقية من بغداد بعد عدة أيام ، فإذا هو جبل من الطعام ، وبعد أن تغذت منه الطيور والحيـوانات أياماً ، تعفن بـاقيه في المدينة ، وأخـذ يهدد صحـة الناس وسـلامتهم ، مما اضـطرهم لاستئجار جمـاعـة لابعـاده عن المدينة !! ولم يظهر رجل واحد من المسلمين في كل المجتمع الاسـلامي ليقـول لهم : هـذا الـطعـام الكثير إسراف في الـدين . . نعم ، لم يقل ذلـك أحـد ؛ لاعـالم ولا فقيـه ، لاشـاعر ولا نبيـه ، لاإمـام ولا مـأمـوم ، . . لمـاذا ؟؟ لأن « الدراية الاجتماعية » لم تكن عندهم !

وهؤلاء الناس الذين لم يبـدوا اهتمامـاً لذلـك ، كانـوا يجتمعـون معاً ويتحـدثون ، ويتسـامرون ويحتفلون ، لأنهم اكتشفوا قاعدة نحوية للغة العـربية ، او عثـروا على كتـاب في الطب والأدوية ، يريدون أن يترجموه ليحصلوا على وزنه ذهبـاً !! وهكذا ، بلغت الأبحـاث الفلسفيـة والعلميـة في

زمن بني العبـاس !!. غـير أن هؤلاء لم يبقَ لهم شعـور بالنسبة لمصيرهم الاجتماعي ؛ فكانت النتيجة ، أنه يوم دخول المغول ، واكتساحهم هذه الديار ، لم تبق لهم حضارة ولا اقتدار ، ولا علوم ، ولا ذلك ؛ إلا لأن « الدراية الاجتماعية » كانت عديمة ، وهكذا نجد أن دافع الاستعمار في زمن بني العباس كان العلم والحضارة ، الفن والادب ، التحقيق العلمي والفني ، الأدبي واللاأدبي .



الفصل الرابع

انواع الاستحمار

الاستحمار نوعان : استحمار عتيق واستحمار حديث ، وهو كالاستعمار تماماً ؛ منه عتيق ، ومنه حديث . والاستحمار كما ذكرنا دافع لانحراف ، او طلسمة الذهن والهائه عن (الدراية الانسانية) و (الدراية الاجتماعية) ، واشغالة بحق او بباطل ، مقدس او غير مقدس . وهذا تعريف جامع للاستحمار .

كان الدين دافعاً قوياً للاستحمار القديم ، بينما الدافع للاستحمار الحديث هو كل تشاجر ، وتحارب ايهامي كاذب ، والوسائل التي تستخدم في هذا المجال هي :

في « الاستحمار القديم » يستفاد من الزهد ، الاخلاق ، التصوف ، الشعر ، القومية ، تعظيم الماضي

وتجليله ، الفلسفة ، الشكر ، الثواب ، الشفاعة ، الوصول الفردي الى الجنة ودخولها . . . ، وفي الاستحمار الحديث يُستفاد من (التخصص ، التحقيق ، العلم ، القدرة ، التقدم ، الحرية الفردية ، الحرية الجنسية ، حرية المرأة ، التقليد والتبعية) .

الدين الاستحماري

بعد انقضاء فترة الأنبياء العظام ، الذين بلّغوا الدين واضحاً وصادقاً في ذروة الحقيقة ؛ وقع مصير الدين في أيدي قوات استحمارية ، مضادة للانسانية ، تتسمى بأسماء مختلفة : كالفئة الروحانية ، والفئة المعنوية ، والفئة الصوفية ، وفئة الرهبان ، وفئة القسيسين وغيرها . . وهؤلاء اتخذوا الدين وسيلة لاستحمار الناس ، افراداً وجماعات ، وحيث أن الدين يقتني بهم ، وبالأخص الاسلام الحنيف الذي يشمل « الدراية الانسانية » و « الدراية الاجتماعية » و « الدراية الفردية » .

ويدور كلامي هنا ، حول الدين الاستحماري ، الدين المضلّل ، الدين الحاكم ، شريك المال والقوة ، الدين الذي تتولاه فئة من الرسميين ، لديهم بطاقات للدين ، واجازات للاكتساب ، وفيهم علامات خاصة ، تنم عن احتفاظهم بالدين ، وبأنهم من الدعاة .

والسؤال هنا : لأي شيء يُسَخِّر هذا الدين الناس كالخمير؟ بل ، ماذا يفعل هذا الدين بالانسان فيستحمره؟ علماً ، أنه ليس باستطاعة الدين ان يسلب من الانسان « نباهته الفردية » و مسؤوليته عن مصيره ومجتمعه . لعله يقول لك : دع الدنيا ، فإن عاقبتها الموت ، وادخر كل هذه الحاجات والمشاعر والأمنيات الى الآخرة ، الى ما بعد الموت ! وليس الفاصل الزمني بكثير ، ثلاثون أو أربعون أو خمسون لا قيمة لها !! بعدها كل شيء طوع ارادتك ، وتكون من اولئك الذين هم فيها خالدون ! نعم . . انها سنوات العمر القصير ، لا قيمة لها ، دع الدنيا لأهلها ! ولا شك أنه يقصد بأهلها نفسه . . . وذلك الدين يسلب مني مسؤولياتي تجاه مجتمعي بطريقين :

الأول : يأخذ مني امكانياتي ومواهبي التي امتلكها ، ويحرمني منها ، ولما كان عليّ أن أرفض الظلم من أجل الحاجة الى العدالة ، فإن دين الاستحمار يدعوني الى السكوت عن الظلم والفقر ، والصبر ؛ ويكلني الى « العباس »[1] ، ويزيح عني كل مسؤولية !! .

---

(١) العباس بن علي بن ابي طالب استشهد في كربلاء مع اخيه الحسين (ع)

الثـاني :: حينما أرى نفسي مقصراً ، خـائناً ، مسيئـاً الى المجتمـع ومصيره ، فـأقع تحت ضغط ضميـري ، وتجـرني « الدراية الاجتماعية » الى أن أُرْجِعَ حقوق الناس اليهم ، واستسمحهم فيمافرطت في جانبهم ، إلا أنك غير قـادر على أن تُرْجِعَ اليهم حقـوقهم ، ثم ليس هذا صـواباً ! وهنـاك طـريق أسهل . . وهـو : أن تَقرأ وانت متجـه الى القبلة ، هـذه الكلمات ست مـرات . . وبعدهـا ، لا يبقى عليك شيء ، وسَتُغْفَـر ذنـوبـك كلهـا وتنـال الشفـاعـة والعفـو والرحمة !

أجل ! إن رب هذا الـدين سيعفـو عن جميـع السيئات والقبائح والمنكرات بسهولة ، وسيمحو ذنوبك ، ولو كانت عـدد رمـال الـوديـان ، ونجـوم السمـاوات ، بنفحـة واحدة !!. وهكذا ؟ تتساءل أنت : لأي شيء أتحمل ثقل المسؤوليـة الاجتمـاعيـة ، إذا كـان واجبي نحـو النـاس ، وحياتهم يلزمني أن أموت من أجلهم ، وأضحي بنفسي في سبيلهم ! لِمَ هـذا ؟ وهنـاك طـريق أسهـل ، انـه « كتـاب الأدعيـة » فهو يفتـح لي أبواب الجنـان ، من غير تعب ولا نصب ، ودون مشقـة أو أجهـاد فكـر ، وبـالتـالي دون أي مسؤولية .

إنـه الـدين المستحمـر ، الـذي يقـول لـك : يكفي أن

تُدْخِلَ السرور الى قلب واحد ، او تقضي حاجة آخر ، حتى تمحي كل ذنوبك ، وتُبدل سيئاتك حسنات ، وتُقضى عنك كل المسؤوليات الاجتماعية .

والخلاصة : أن الدين المستحمر ، يكفل استيفاء حقي ، والأخذ ممن ظلمني الى ما بعد الموت ، هذا بالنسبة لي وأنا مظلوم ، أما عندما أكون ظالماً ، فإنه يعلمني ألا استرضي المظلوم ، بل ، عليّ أن اطلب رضا ولاة الله والدين !![1] فتصبح اولئك لي ، بالنيابة عن جميع المظلومين ، وحتى عن الله على جواز دخولي الجنة . . . .

ومن هنا نتبين أن دين الانحراف يدعو الطرفين ، الظالم والمظلوم الى الاستحمار ، ويُبَدِّلُ كل القضايا الى مسائل ذهنية ، ويتكفل برفع كل المسؤوليات الاجتماعية عن كاهل كل صالح ، وغير صالح بسهولة وبمكر خاص ! لا يعرفه سوى ولاة الله الرسميون ، والوسائط الرسمية المدربة .

الزهد :

الزهد نوع من الاستحمار ، لأنه يأمر الانسان أن يترك حقوقه الاجتماعية ، وحاجاته الطبيعية جانباً ، ويقطع

---

(١) فيصادق اولئك ـ بالنيابة عن جميع الذين ظلمت ، وحتى نيابة عن الله ـ على جواز دخولي الجنة .

حيل الأمل منها جميعاً ! ويُبقي الأنسان مرتبطاً بحاجات بسيطة جداً ، لا تتجاوز حاجات الحيوان . وكذلك ، يسلب الزهد من الفرد درايته النفسية ، ويمسخه حقه من التمتع كإنسان ، بجميع المواهب ، والنعم ، التي خلقت له في الدنيا ، وليس لأحد أن يمنعه من التمتع بها . وفي النهاية ، يسبب الزهد حيلة لصاحبه للانزواء والقناعة والاكتفاء بالقليل من الطعام ، وباختصار يدعو الزهد الناس جميعاً لترك حقوقهم ، والتخلص من حطام الدنيا لصالح اعدائهم ، أصل الحرص والمطامع ، ولهذا نرى الزهد وسيلة لتنفيذ الظلم .

الشعر :

لاحظوا نموذجاً من الشعر ، في كتاب يعود تأريخه الى سنة ٦١٨ هجرية ، وهي السنة التي دخل فيها المغول الى ايران ، وخربوا بلخ ، ونهبوا كل الشمال ، وتركوا ايران تسبح في لجة من الدماء . يقول فيه كاتبه : « انا هارب و فار . نحن لكننا في حالة هرب ، لأن المغول جاؤوا الينا . . . انهم أتونا ، وها نحن نفر طلباً لنجاة ! » . في تلك الظروف ، وفي تلك الحال ، كان المؤلف ينظم الشعر ! فإلى كم يرتفع الصلف ، والى أي حدٍ يصل الاطمئنان ! وشاعرنا ينظم قصيدة من مائة بيت ، يرتب الكلمات والعبارات على نهج ، تقرأها فيه فإذا هي قصيدة

في مدح الخاقان ، وإذا قرأتها على نحو آخر ، تصبح غزلاً . . .
وهذا النوع من النظم . يسمى « صنعة المطيّر » ، مأخوذ من الطير .

وقد تقرأ القصيدة على شكل الشجرة ، كأن توضع الكلمات مكان الأغصان والأوراق والأثمار ، فيكون الشعر من نوع الرباعي في وصف مولى ؛ ويقال لهذه الصنعة صنعة التشجير ، مأخوذة من الشجرة . ثم إذا قُرأت بعد بترتيب كلماتها على شكل بقرة او حمار تكون مدحاً للخاقان ! فأحسبوا معي ، الى كم من الزمان يحتاج الانسان ، ليُدْخِلَ سبع او ثماني قصائد غزلية ، ورباعيات ، بعضها ببعض ، ليخرج للناس صنايع مختلفة ! لا شك ، أنه أمر يحتاج الى مزيد من الفطنة والدهاء ، ليكون الشاعر قادراً على نظم قصيدة ، تقع الكلمة الثانية من البيت الأول فيها ، موقع الكلمة الثانية والعشرين في منظومة غزلية ، وتقع الكلمة الحادية عشرة من المصراع السابع في بداية شعر رباعي ، والكلمة ، الثالثة من المصراع السابع في بداية شعر خماسي (هذا الى جانب الوزن الخاص ، والمضمون الخاص لكل نوع من تلك المنظومات !) . لا بأس إذاً ، لكن ما الفائدة من هذا العمل ؟ فبينما كان جنكيز خان يجول البلاد طولاً وعرضاً ، ينهب ويحرق ويقتل ، يفر هذا الشاعر على وجهه طالباً

النجاة ، ويقوم بعمله هذا في حالة فراره ؛ فانظروا معي كيف يُمْسَخُ الانسان ، ألا يكون ضحية الاستحمار .

وفي طهران ايضاً ؛ كان هناك شاعر فصيح ، ينظم باللغة العربية ؛ إلا أنه ليست لديه القدرة على نظم الشعر القومي والحماسي واستخدام الصنائع البديعية . وكان في الوقت نفسه ، رئيس مكتب الاسناد والزواج والطلاق ، وعندما حاول ان ينظم شعراً في موضوع ما ، لم يوفق ، فعمد الى جمع كل المطالب الخطية التي وزعتها دائرة تسجيل الاسناد العامة على مكاتبها الرسمية من سنة ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، أي في الفترة التي كانت ايران ، تعاني فيها الضغط من احتلال أربعة جيوش أجنبية !! إن هذا مصاب بداء الشعر ! انظروا الى الفترة الزمنية بين سنتي ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، تجدوا مصير ايران ، وحكمها ، ووجودها ، وحروبها الداخلية والخارجية ، والأطراف المتنازعة فيها ؛ من أهم الأحداث ، بينما يمضي هذا الأديب لِيُخْرِجَ لمجتمعه ، ذلك العمل الفني الرائع !انه الاستحمار بواسطة الشعر ! .

القومية :

كان الألماني البائس ، زمن هيتلر ، يعض على « صندويجة » ويقول بزهو وغرور : أنا عازم على الحرب !

ولو سألناه : لأي سبب تحارب ؟؟ لأجاب : هناك في اميركا ، خمسة ملايين من العرق الجرماني ، أريد أن أرجعهم الى المانيا ، كي لا يتلوث أصلهم ، فينمزج بسائر القوميات !.

حقاً : ما أسخفه ؛ إنه يموت جوعاً وبؤساً وفاقة ، ولا يشعر بذلك ، بل ، لا يدرك مدى تأثير الدعاية المزيفة عليه ، انه يريد اخراج خمسة ملايين نسمة من الأصل الجرماني ، اخراجهم من اميركا ، والعودة بهم الى المانيا ، كيلا يختلطوا بالعروق الأخرى ، فيتلوثون ، لا عمل له غير هذا ، لقد تمركز الاستحمار في قلبه !.

الفخر بالماضي والاعتزاز به :

كان ايراني ومصري يتحدثان ، ويفخران بماضيهما ، (المصري يعتز ويفتخر بالأهرام ، وقبور الفراعنة ، حيث يخرجون جثماناً دُفِنَ قبل خمسة آلاف سنة ، ويأتون به الى الساحة « نموذجاً » ، ولم يدركوا أن هذا المرحوم ، كان في حياته، ابن جرثومة قذرة ، فكيف تكون ميتته نموذجاً ؟) . خاطب المصري زميله الايراني[1] قائلاً :

---

(١) بأي شيء يموهون على الانسان ، يعدمون المفاخر الموجودة به ، ويسلبونه القدرات الحالية ، ولا يعتنون بها ، ثم يفخرون ! وهذا الشاعر الموسوم بالعراقي ، الفاسق المنحرف أخلاقياً ، يتجول في البلاد ، وكلما دخل بلداً =

قيل إنه عثر في أهرامنا على بكرة وأسلاك وخيوط ، فاتضح بعدها أنه كانت لدينا انذاك ، أجهزة مخابرات سلكية !! فَرَدَّ عليه زميله الايرانيَ : نحن في ايران ، كلما تحققنا وفتشنا في آثار (تخت جمشيد) لا نعثر على أثر بكرة أو أسلاك أو خيوط ، ومن هنا يتضح أنه كانت لدينا انذاك ، أجهزة مخابرات لاسلكية !. . . نحن نفرح بهذه الأشياء ، ونفتخر بقضايانا القومية البائدة ! بيما لدينا آلاف النوابغ ، والأسانيد التاريخية والعلمية في الحضارة الاسلامية ، نحن نعرفها ، والعالم كله يعرفها ، وهي شواهد على قابليات الفرد الايراني . لكن ، الاعتزاز بالماضي ، واللجوء الى القضاء والقدر والشفاعة والثواب ،

=أفسد فيه ، وإذا طلبه هرب الى بلدٍ آخر ، وأفسد فيه ايضاً ، إن هذا دابه . لكن ، انظروا الأن ، ما يعمل له من تجليل وتعظيم وتكريم ! فكل سنة يطبع ديوانه مرة ، وشعره ، يقرأ كل ليلة من الأذاعة والتلفزيون ، وتعطى لشعره وأدبه الأولوية في التحقيق ؛ بينما لدينا قابليات شعرية وأدبية حية وموجودة ، من دون أن يعتنى بها او يشجع أصحابها ؛ في الوقت التي هي اثمن وأرقى من النواحي الأدبية والانسانية مما قاله ذلك المتهور . لكنها ضائعة ! وقد تبقى مهجورة ، فتبلى ولا تسمح الظروف المالية وغير المالية بطبعها ، ويبقى أهل تلك القابليات ، يخطون باقلامهم ليلاً نهاراً لسد جوعهم ، وجوع من يعولون به ، وقد يتحول أحدهم الى حارس بوابة او محاسب شركة ، لماذا ؟ لأن قيمة الأشياء وأثمانها ، تعلو وترقى بالنسبة لقدمها !!.

والشكر والتشويش النفسي ، وعقدة الذنب ، والفوز الفردي بالجنة ، من أدوات الاستعمار القديم . كلها تحث الانسان على متابعة أعماله بنفسه ، منقطعاً عن الناس ، باحثاً في كتب الأدعية عن طريقه الفردي الى الجنة ! إن هذا أكبر استحمار ، وأكبر مصيبة تُصيب المجتمعات الدينية أن تقع في الاستحمار عن طريق الأديان المحرفة .

الشكر :

ولا أعني الشكر الذي يُوصي به الدين الصادق ، دين المعرفة ، الذي هو عبارة عن دراية الانسان ، ووقوفه على قيمه ، ومعرفته بالنعم والمواهب الموجودة عنده ، اقصد الشكر الذي تقول به فلسفة الدين المزيفة ، أي الشكر على التعاسة والنخاسة ، الشكر الذي هو فلسفة العجز والفاقة ! . كان يقول ! « إنه كشكر ذلك الرجل الذي كان يقول : « الحمد لله الذي لم يجعل آذاننا تحت آباطنا » . حقاً ، إن هذا لبائس تعيس ، لأنه لم يجد نعمة غير هذه يحمد الله عليها ، فهو يفتش عن أي شيء يشكر الله عليه ، وماذا لو كانت آذاننا تحت آباطنا ؟ كنا سنجبر على رفع الآباط كلما تكلم أحدنا لنسمع ما يقول !! وستكون الكيفية مضحكة جداً . . . أما الآن ، فنسمع دون ان نحرك ساكناً ، إذاً . . لك الشكر يا الله !! .

ومثل هذا ، من أن أحدهم كان يأكل « تريداً » ويشكر الله ! فسمعه واحد ، فقال له : ألا تخجل ؟ على أي شيء تشكر الله ؟! . ويذكرنا بالمناسبة ؛ أن « مقدساً » من الأشراف ، كان يرقى المنبر أيام شهر رمضان رجاء للثواب ، وكان يشكر الله مرة كل يوم كجزء من ثلاثين شكراً ، حيث كان يكتشف كل يوم نعمة جديدة . واذا سأله العوام يوماً علام تشكر الله ؟ يجيب ، أنه غداً يوم القيامة ، إذا جاءت ملائكة العذاب ، وسألتكم ، لِمَ أذنبتم ، وقد أعطاكم الله عقلاً وشعوراً وقوة وفطنة وقابلية ؟ وحيث انتم عوام ، لا تعرفون كيف تجيبون ، عليكم أن تشكروا الله لخلقه أناساً مثلنا !! .

وغداً ، يعود هذا القديس ، فيصعد المنبر ، ويضج الناس بشكر الله ، وعندما يسألونه ؛ يجيب : ليتصور أحدكم أنه جالس في ليلة من ليالي الصيف على سطح داره ، وقد وضع أمامه كأساً فيه سكنجبين[1] ، وأضاف اليه خياراً ، ومقداراً من حب القَنب ، ثم قطعاً من الثلج ؛ فصار الجميع كالبرد ، ثم يضع ذلك الكأس عند رأسه وينام . وفي منتصف الليل ، يمر جبرائيل من

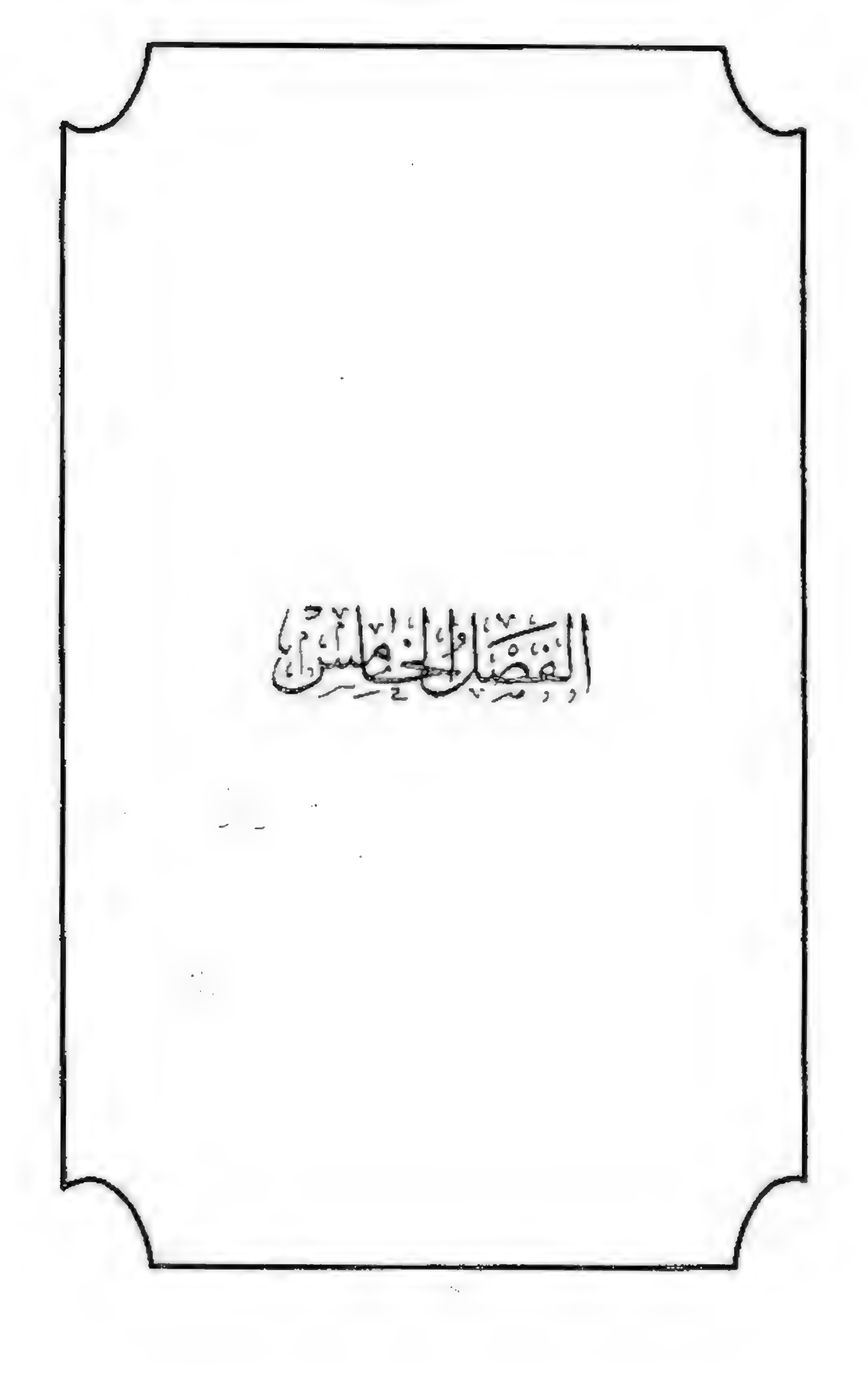
(١) نوع من الشراب مصنوع من السكر .

السماء ، ويرى الكأس ، فلو كان مخلوقاً على النحو الذي يمكنه أن . . . . . لفاجأت كأسك وقد . . . . . . جبرائيل . وبعدها ، ماذا كنت تعمل ؟ أما انّ ؛ وقد خلق العلي الأعلى جبرائيل على نحو لا يمكنه أن . . . . إذاً ، اشكروا الله بصوت عالٍ . . هذه فلسفة حياتنا !! وإنّا وإن حسبناها سخرية إلا أنها فلسفة حياتنا .

ثم . . انظروا الى عامة شعبنا ، كيف اقتنعوا ورضوا . . ثم الى ولئك المقدسين المتدينين ، الى أي حدٍ هم أقنع وأرضى ! انهم راضون بنسبة بؤسهم وتعاستهم ، انه الشكر الاستعماري ، المعاكس للشكر على « معرفة النعم » تماماً . ولو وافقناهم على هذا الجهل ، وهذه الغفلة عن « النعم » ، التي سلبت منهم ، وهم يكررون الشكر لله ، لوصلنا الى اسوأ من هذه الحال ! .

انظر دائماً لمن هو دونك ! لو كان هذا صحيحاً ، لما كانت هناك حاجة للتقدم ، ولو اقتصر الأمر ، على أن ننظر نحن الى افغانستان ، فنقنع ، وينظر الأفغانيون الى اليمن فيقنعون ، وينظر اليمنيون الى موزمبيق فيقنعون ، لما كانت هناك حاجة للتحرك ايضاً ، بل لأي شيء نتحرك ؟ ان هذا النوع من الشكر هو فلسفة الرجعية وهنا لدي سؤال ، وهو هل أن المتجددون مصابون باستحمار فلسفة

الشكر الحمقاء ، لكن بصورة جديدة ومحترمة وهل هم كاولئك في البلاهة ، راضون شاكرون بما لديهم ؟ لكن لو نظرتم الى رضاهم من أجل أي شيء وأي قضايا ؟ لعلمتم أنه نفس شكرهم الأحمق السخيف !!.


الفصل الخامس

أشكال الاستحمار

للاستحمار شكلان : مباشر وغير مباشر . فالمباشر منه ، عبارة عن تحريك الأذهان الى الجهل والغفلة ، أو سوقها الى الضلال والانحراف . أما غير المباشر ، فهو عبارة عن الهاء الأذهان بالحقوق الجزئية ، البسيطة اللافورية ، لتنشغل عن المطالبة او التفكير بالحقوق الأساسية والحياتية الكبيرة والفورية . فمثلاً ، لنفرض انني أنا قيم على صغير ، وأريد أن أُلهيَه ، فأختلس ممتلكاته ، وأنقلها بأسمي ، دون ان يعلم ! فقصدي إذاً أن أختار له أداة استحمار من نوعه . وكل أداة تلهيه عن تلك الخطة التي أعددتها له ، كي انفذ إرادتي ، دون أن يشعر بقصدي ، هي استحمار ، والنتيجة أن أداة استحمار أي فرد ترتبط بنوعه .

وإذا ما رأيته جميلاً ، ذا قامة متناسبة ، فأشجعه على الرياضة ، ذاكراً له محاسنها ومنافعها ، فيسير في وادٍ من الخيالات والأمنيات ، كالمباريات ، والألعاب الأولمبية ، حيث الشهرة وما شابه . واذا رأيته من غير هذا النوع ، بل من طراز اولئك المثقفين والمتجددين ، فأشجعه على الدراسة والاستمرار بها ، حتى الحصول على الشهادات العالية ، وبعدها أعود فأذكر له فوائد العلم ، وأن طلب العلم فريضة . . وأعمل حتى أساعده على السفر الى اميركا لاتمام دراسته ، واتكفل بتأمين ثلاثة او اربعة آلاف تومان له شهرياً ؛ وهو في اميركا ، وإذا اقتضى الأمر ، إرسال اكثر ، وهكذا أفي بكل ما وعدته به ! لكن هذا كله ليس سوى أداة مرحلية لاختلاس ثروته وميراثه .

وإن كان غير صالح للرياضة أو للدراسة ، بل هو من نوع اولئك العاطفيين ، يهوى العزلة والخيالات و . . . فأشجعه على الصوم والصلاة والأدعية والزيارات ، وابذل له كل ما يريد من أجل نذر وزيارة وجنة وآخرة . وما ذلك إلا لكي ألهيه ، وأقضي حاجتي معه . وهنا نرى ، أن الدين والرياضة والفن والدراية والعلم والخير والشر وما شاكلها أدوات استحمار ، لأنها تؤدي للإلهاء والإنشغال عن الحق الفوري . فأداة الاستحمار إذاً ، تُنتخب حسب

نـوع الفرد ، الـذي يراد استحمـاره ، وبعـدهـا ، يحـرِّك المستحمرون الفرد نحو ميوله !!. واخيراً ، يصبح عندنـا جماعة تنشغل بالأدعية ، وأخرى تعمل بالـرياضـة ، وفريق منشغـل بـالفن ، وآخـر بـالعلم ، وبعضهم بـالتحقيق ، وبعضهم الآخر بالزهد ، وكـلٌ بما لـديهم فرحـون . فكل شيء اذاً ، يشغلني « انا » كانسان ، « ونحن » كمجتمع ، عن الـدراية الانسـانيـة والـدرايـة الاجتمـاعيـة هـو أداة استحمار .

المعركة الإيهامية

الحـرب الايهـاميـة ، هي احـدى أدوات الاستحمـار ، والإلهاء عن الدرايتين المذكورتين . ولقد ذكر عمي الساكن في قرية « مزنيان » أن سيداً من هذه القرية ، عامله معاملة مضحكـة ، حيث أن عمي كان يحب « الـديوك » كثيراً ، وذات يوم ؛ أتى اليه ذلك السيد وقال له :

- في « بهمن آبـاد » ، بالقـرب من قريتنـا ، تُبـاع الـديـوك رخيصة جداً !!

- بكم الواحد مثلاً ؟

- انها ديـوك جميلة ، سالمـة وغير اميـركية ؛ والـواحد منهـا بخمسة توامين !

ـ لا ! كيف يمكن هذا ؟ (ينكر عمي) ، يباع الديك هنا بعشرة توامين ؛ وعلى مسافة كيلومتر واحد من هنا ، يباع بخمسة ! لا . . لايمكن هذا !!.

ـ لا يا مولاي ! إنه ممكن ، أعطني الثمن لآتيك بالديوك !

ـ خذ . . هذه خمسون توماناً ، فأتني بعشرة !

يمضي السيد ، وبعد ساعتين ، يعود بعشرة ديوك كبار ، سمان ، الواحد منها بخمسة توامين فقط ! فيسأله عمي

ـ ألا تريد نقوداً بعد ؟!

ـ لا . . . يا مولاي ، واذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك ، فإني آتيكم بها !

ويمر شهران ، ويأتي أحد أصدقاء عمي لزيارته من (بهمن آباد) ، فيجلسان ويتحدثان ، حيث يقول الضيف :

ـ ألا تريد نقوداً ؟!

ـ لا . . . يا مولاي ، واذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك ، فإني آتيكم بها !

ـ ان والدة كيك قد وضعت البيض تحت الدجاجة ليكون فراخاً ، نذرت كل ديك يظهر منها لك !!

وبعد مدة ، ظهر ستة عشر فروجاً ، أو سبعة عشر ، مات منها أربعة او خمسة ، وظل الباقي وكله ديكه ، ولقد ارسلناها لكم بعد تمام ستة أشهر . فكيف كانت الفراريج ؟

- أي فراريج ؟

- الفراريج التي بعثناها لكم مع السيد !!

- السيد . . أي سيد ؟ انه ابتاع الواحد بخمسة توامين ، واستلم الثمن !

- خمسة توامين . . ماذا تقول ؟ قيمة الديك الواحد في (بهمن آباد) خمسة عشر توماناً ! إنه أغلى من هنا !!

- لقد سألت السيد ، عن ثمن الديك في (بهمن آباد) فقال : خمسة توامين ، ولذا أعطيته خمسين توماناً ، وجاءني بعشرة فراريج !

- لا . . يا مولاي . انه نذر . ما هذا ؟ خمسون توماناً !! .

(يقول عمي) ، علمت بعدهـا أن السيد كان في (بهمن آباد) ، وكان صديقنا الضيف قد طلب منه ، متى عزم على الذهاب الى « مزينان » ان يأخذ لي معه الديكة . وعلى هذا ، اتفق معه السيد ، لكنه جاء الى « مزينان » وقبض خمسين توماناً حتى عاد بالديكة المنذورة !! .

ويتابع عمي ، أنه بينما كنت وضيفي نتحدث عن الديكة ، حتى فاجأنا بصوت عال :

ـمولانا ! لأي شيء انتما جالسان ؟ وقد أُريقت الدماء خلف داركم ، فقتل اثنان ، ومضى ثلاثة ، وهلك آخر . . وأكلت النيران بيت فلان . . . !

ـ خرجنا بسرعة ودهشة ، نتحقق الخبر ، فلم نجد احداً ، خارج الدار ، ولا في السوق ، إلا رجلين يدخنان « الغليون » بلا هم ولا غم ! سألناهما : ما الخبر ؟ ما الذي وقع ؟ اين محل الحادث ؟ فأجابا ! لم يحدث شيء ! عدنا بعدها الى الدار ، فلم نجد السيد ! لقد أخرج نفسه من تلك الورطة بتلك المعركة الإيهامية ، كيلا يقع في المحظور .

ايهام ! ايهام !

معركة ! مولاي معركة !! يريد أن يُضِيّع علينا قضية الديكة ، فيقول : معركة ! سالت الدماء على الأرض . . . يريد أن يموه قضية الديكة ، وحتى تبقى القضية مجهولة ، يختلق حرباً ايهامية ، يقيم قضية « فرعية » الى جانب القضية « الأصلية » فتنشغل الأذهان بها مدة مديدة . . . !! ومن هذا القبيل ! معركة الشعر القديم مع الشعر الحديث ، والعباءة مع « الميني جوب » ، والخط الفارسي مع الخط اللاتيني ، والمتأخر مع المتجدد ،

هـذه كلها معـارك ايهامية فارغـة ، كمعركـة القتل والـدم والنار من أجل ان تبقى قضية الديكة مستورة .

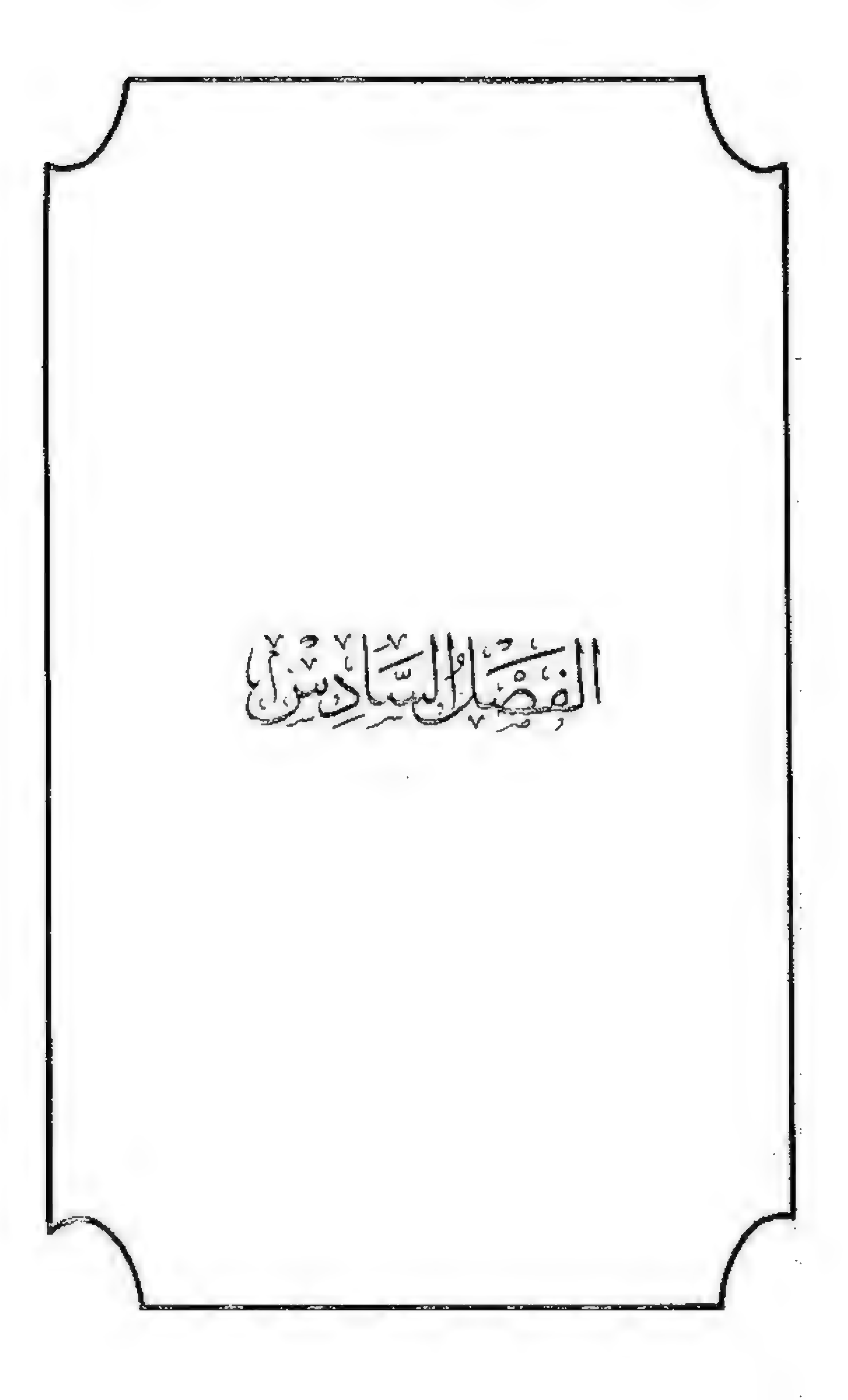
إنه في الفترة الممتدة بين ١٣٢٠ و ١٣٣٠ ، أُختلقت من ثماني عشرة الى عشرين معركـة في ايران ، من اجـل أن لا تُعْـرَضُ قضية شـركة النفط عـلى الأفكار والأذهـان !! وفي القـرن التاسـع عشر الميـلادي ، عنـدمـا بلغت نشـاطـات الاستعمار ذروتها ، ظهر سبعة عشر نبياً ، في فترة لا تزيـد على ثلاث عشرة سنة من الصين الى بو شهر في ايران . وما ذلك ، وبينما كان ابناء شعبنـا ، وأبناء الأمـة الاسلامية ، يتجرعون الموت من ظلم الاستعمار وضغوطه ، قُتِلَ آلاف الفلاحين الايرانيين في اختـلاف عقائـدي مداره : هـل ان الامـام موجـود في عالم المـادة ، أم هـو من عـالم الروح ؟ والغريب ؛ أنه اثناء ذلك الصراع ، ظهر مدعٍ ينفي وجود الامام على الوجهين المذكورين ، ويقول إنه موجود في عالم سمـاوي بين الـلاهوت والنـاسـوت ؛ بـين العـالم العلوي والعالم السفلي . ان آلاف الفلاحين قد قتلوا من أجل تلك العقيدة وآلاف من المدنيين البائسين ثاروا ضد مؤيدي هذه العقيدة فقتلوا .

فمن هما طرفا القتال في حرب « العالم السمـاوي » اثناء القـرن التاسـع عشـر؟ ان طرفا القتـال همـا : القـروي

والمدني ، مؤيدو عقيدة « العالم السماوي » ومخالفوهم ! لأي شيء ؟ لنفي او اثبات العالم السماوي ! متى ؟ في زمن كانت اوروبا تشهد فيه حرباً رأسمالية ، حرباً انتاجية ، ومن هنا جاؤوا ليشعلوا نار حرب « العالم السماوي » . وما هي تلك الحرب ؟ انها الاستحمار !! وكم من حرب باطلة ، بلا معنى ، تقع بيننا في هذا الزمان ، فيتضح عبثها بعد انتصار أحد طرفي النزاع ! وما كل الهتافات والانفعالات التي يتخذها فريق ضد آخر ، يتخذها الأب ضد ابنه ، والبنت ضد أمها ، والفتى ضد الفتاة ، يتخذها الحديث ضد القديم ، والمتجدد ضد المتأخر ، إلا معارك تمويهية ايهامية ! كتلك المعركة التي قامت من أجل الديكة ، وعند التحقيق والتفتّيش ، لا شيء في النتيجة ، والمعركة تنتهي لصالح الذي أشعل نار الحرب . . . وبضياع الفرصة ، وهلاك جيل ويأسه ، وحرمانه من ثمرة جهوده وكفاحه ، يأتي جيل آخر ليواجه معركة تمويهية أخرى .

حينما يقع اصطدام في مجتمع ما ، ينبغي ان يُنْظَرَ اليه ، من زاوية ارتباطه « بالدراية الانسانية » و « الدراية الاجتماعية » ، وكم من مسائل فكرية فقهية ، دينية وغير دينية ، فلسفية وعلمية ، تُفْرَضُ الآن على الافكار

والأذهـان بشكـل كـاذب ومنحـرف !! وكم من محـاورات ونزاعات ، أُجريت حول بعض الكلمات العربيـة الداخلة على اللغة الفارسية ! لقد أصروا على حذف الكلمات العربية من جذورها من اللغة الفارسية ! حسناً . حـذفوهـا ! ثم مـاذا بعد ذلـك ؟ لا شيء غير الجـدل والنزاع مرة أخرى على حذف الكلمـات ، ثم العجز عن الكـلام الصحيح ، والتصنـع بالبكم والخرس ! انهم يقـولـون : لقـد تحملنـا متاعب جمة ، الى يومنا هذا ، حتى بنينا لغة فارسية بليغة ، وينبغي الآن أن ننقيها حسناً تفعلون ، لكن ماذا بعد؟ سفاهة وتفـاهة ، والقضيـة شيء آخـر !! القضيـة الحقيقيـة شيء آخر ، والحرب الحقيقية حرب أخرى ! لكن هناك اصـواتاً تعلو وتقـول ! ايها النـاس : ان الفاقـة والبؤس همـا سبب الجهل، وعلة العلل في خطنا، في خطنا فلنبدّله إلى الحروف اللاتينية ! لقد غيّرت تركيا خطها الى اللاتينية قبـل اربعين عاماً ، وما زالت متأخرة ، بينما تمكنت الصين واليابـان في خمس عشرة سنة ان تحيا الأمية من بلادهما ، وأن تصبحا في عداد البلدان الراقية المتمدنة ، مع بقاء الخط فيهما قـديماً . وحيث هـو فنٌ بحد ذاتـه ، كما أن الـذين يحسنـون قـراءة الخط وكتـابته يُعدون من علماء تلك البلاد . فـأين انتم يا بشر؟ اين تجلسون ؟ هذه كلها حروب استحماريـة ، انها معركة الديكة لتمويه الحقيقة .



الفصل السادس

التخصص

كل واحد يسير في نهجه وتخصصه على نحو يغفل معه عن قضية المجتمع ومصيره. إنه كبقرة افلاطون تماماً، عندما يلمس واحد حافرها ، وآخر قرنها ، وثالث ذنبها ، والنتيجة لا احد يشعر بوجود حيوان ! وهكذا التخصص ؛ يسبب انغماس الانسان في إطار محدود وصغير جداً ، مجرداً عن المجتمع ، بصورة يصعب معها لمسه كجسم واحد شامل . وعلى هذا ؛ فالتخصص يعدم الدراية الاجتماعية ، كما يسلب الفرد امكان شعوره بنفسه ، كانسان مساهم في شتى وجوه الحياة . والسبب في ذلك ، كون التخصص يعمل على نمو الفرد من جهة واحدة ، ويعطله من سائر الجهات . والسؤال هنا : هل التخصص

أمر لازم ؟ نعم . . انه أمر لازم ، ولا ينبغي ان نعدمه ، لكنه ، علينا في الوقت الذي نتخصص فيه في فروع مختلفة . ان نحفظ « كليتنا الانسانية » و « كليتنا الاجتماعية » .

العلم :

ان الوقوف على حقائق عالم الطبيعة ، والاطلاع على مظاهر الدنيا ، من مهمة العلم الذي يؤثر فينا على نحو كاذب ، نبقى معه في عطش الى المعرفة ! حيث يظن « العالم » أنه ذو نباهة بالنسبة لنفسه ومجتمعه وزمانه . هذا ، وهم لانه « عالم » لاغير ! والعلم من أجل العلم اداة انحراف ، وضلال عن النباهة الانسانية والنباهة الاجتماعية . ولقد صدق « هايدكر » اكبر فلاسفة عصرنا ، واستاذ سارتر ، عندما قال : **انما العلم والحضارة ثمرة ظروف متراكمة ، عديدة ، اصبح الانسان فيها غريباً عن نفسه ! أي أنه راح ضحية للتحقيق والعلم والفن والحضارة .**

فنحن عندما ننشغل بمطالعة كتاب ، او كشف او اختراع ، فإنا نكون غريبين عن انفسنا (أي نعدم النباهة النفسية) فلا نشعر ، حيث نقع آلة بيد العمل ، ومن أجله . وقد حصلت الحضارة والصنعة والعلم من مجموع

تلك الحالات . ان حصولها كان في حالة ابتعاد الانسان عن نفسه ، وعن التأمل فيها ، والاستغراق في شيء آخر ؛ لأن عمل الانسان كآلة ينتج عنه شيء آخر ، وفي مثل هذه اللحظات ، ظهرت الصنعة والحضارة . ومن هنا ، يضر العلم بالنباهة الانسانية والنباهة الاجتماعية .

القدرة المادية البدنية :

وهذه القدرة أيضا مصيبة كبرى ، بدنية كانت أم فنية أم اقتصادية ، فعندما تتجمع لديّ مثلاً ثروة كبيرة ، وتتوفر لي امكانيات كثيرة ، قد أتوهم ان الموِّفر لتلك الامكانيات هو « انا » ، و « انا » الذي امتلكها ! وهذا انحراف عن النفس ؛ لأني جعلت المادة والثروة مكانه « نفسي » ، ونفيت شخصيتي الواقعية ، أو أني ، اتخذت المقام الذي وفرته لي القدرة بدلاً من نفسي ، أو حسبت تلك القدرة شيئاً من قدرتي الانسانية . فخسرت بذلك « النباهة الشخصية » .

لكن حقيقة الأمر غير ذلك ! فقد تكون لبعض الناس قوة جسمية ، كقوة الفيل او الجمل ؛ بينما ليس لهم من النباهة النفسية حتى قوة العصفور! وهنا ايضاً تضر القدرة الجسمية بالوعي والنباهة ! ولقد قيل ! « العقل السليم في الجسم السليم » نعم ، هكذا ، لكن الجسم السليم ، غير

الجسم « القوي » وغير الجسم « اللامتناسب » ولقد كان بعضهم يقول :

حتى لو بَدُنْتَ ، فإنك لن تكون أضخم من البقرة ؛ ولو فرضنا ذلك ، فعندئذ يحلبونك ! واذا ، ازددت قوة ايضاً ، فلن تكون أقوى من الحمار ، ولوفرضنا ذلك ، فحينئذ يحملونك أسفاراً ! وان ازددت سرعة في السير والركض ، فإنك لن تكون أسرع من الفرس ، ولو فرضنا ذلك ايضاً ؛ فساعتئذ يركبونك ! فالانسان « الواعي » باستطاعته أن يكون قوياً ، لكن الى حد يسيطر معه على مصيره . ومن هو ذاك الانسان ؟ إنه بالتأكيد ليس نابليون القوي ، الذي يعبر عن نفسه ؛ وهو في « جزيرة سنت هلن » ! قائلاً : كأني خشبة صغيرة ضعيفة تلعب بها الامواج كيف شاءت . . . صحيح ، ان الله لا يغيّر ما بقوم ، حتى يغيروا مابانفسهم ، لكن ؛ إذا غيّر الانسان ذاته وطبيعته ، يصبح قادراً على تغيير مصيره ومصير تاريخه ، ولا يرتبط ذلك بالجسم والمال والمقام ، بل بانسانية الفرد ، التي تبقى له فقط . . .

التجدد او الحضارة الاستهلاكية :

يمكن ان تكون الحضارة والتقدم من دوافع الاستحمار . . وفي المملكة السعودية مثلاً ، نماذج كثيرة

من هذا التقدم الاستحماري . فالبدوي البائس هناك ، سائق سيارة « الكاديلاك » التي تساوي ٢٢٠٠٠ توماناً بينما هي في اميركا ب ٣٠٠٠ توماناً ! هذا البدوي ، يقود سيارته في بلد لا تُفْرَضُ فيه غرامة على المتخلفين في قيادة السيارات ، وليس عندهم نظام موضوع للسير وللسائقين ؛ لأنه حسب رأيهم « مذموم » شرعاً ، ولا يخلو من إشكال . وهناك ؛ يحمل الشرطة أعمدة من الحديد ، يضربون بها على غلاف السيارات المتخلفة بدلاً من تغريمها. ومعلوم عندها؛ أن السيارة التي تتصدع في مكان أو مكانين، تُستهلك وتنهار قبل أوانها ، ثم أنه ليس عندهم « مصلح » لصفائح السيارات . وخلاصة الأمر ، ان السيارة تصبح بعد سنة او سنتين غير صالحة للاستفادة ، وكل ذلك للصدمات التي أصابتها بدلاً من الغرامة المذمومة شرعاً !! والنتيجة . . لصالح من ؟ . . يجلس ذلك السائق البدوي ، برجليه المشققتين ، خلف مقود سيارة « الكاديلاك » او « الشفر » ، يزهو ويفخر الى حد ، لا يجرأ عليه الاميركي نفسه ! غير أنه جاهل مدى خسارته ، ووقوعه في مكر عدوه[1] ، ناسياً قبل سنة أنه كان يرعى

---

(١) كحكاية الجنرال « اكيوم » تماماً ؛ فإنه سافر مع والده الى افريقيا في بداية صنع الزجاج الملون ، واخذا معهما شيئاً من ذاك الزجاج ، فكانا يعرضانه في حفلات زواج رؤساء القبائل فيندهشون من رؤيته ! ويعجبون به ، فيأمرون =

الإبل في البادية ، وانه تعلم الآن قيادة السيارات !!. ان هذا الفخر ليس سوى « الحضارة الاستهلاكية » ، ويجدر أن اقول : أن هذه الحضارة هي اسوأ واقبح من الوحشة والهمجية ! نعم . . ان الذي يتحضر في الاستهلاك فقط هو دون الوحشي ! لأن الوحشي ، لا يُعْدَمُ الأمل في تحضيره من طريق الانتاج ، لكن المستهلك من غير انتاج ، يعدم الامل به طبيعياً . لقد كان لهذا السائق السعودي سبعة جمال او عشرة في البادية ، فباعها ليفي بالقسط الأول من الذين الذي ركبه من شراء سيارة « الكاديلاك » الاميركية . فتأملوا كيف تخرج الثروة من تلك البلاد الفقيرة ، التي رأسمالها وكل ما فيها تلك الإبل ! ثم راح هذا البدوي يكدح ويتعب ليسد الأقساط الباقية ! لكن ، ماذا بقي عنده الآن ؟ قطعة حديد كانت سيارة لبضعة أيام ، اما اليوم ، فهي صفائح ممزقة تجنباً من أخذ الغرامة !

باع الجمال ، وجلس عدة أيام في « الكاديلاك » بدلاً من ركوب الجمل ، تهبط السيارة ، فينفتح الراديو ، ثم

= باعطائهما قطيعاً من أجود انواع الغنم . وهم فرحون بما حصل لهم من سعادة وتوفيق (فانظروا الى الهمة والكرم) .

ينطفيء متى شاء ، لقد أمر أن تعمل لها مقاعد من الليف ، وتُعطى الفم شكل وصبغة ،لتكون عربية ! أما الأن ؛ فقد بقي هو وقطع من الحديد و . . . لاشيء !!.
ولم يعد يسعه ، إلا أن يذهب ، فيفتش عن مكان للسرقة ، او يكون سائلاً او خادماً ، أو ينتظر الموت في مكان فيريح نفسه . هذا هو مصيره المحتوم ، في بلاد تعادل مساحتها ضعف مساحة ايران ، وليس فيهما اليوم خمسة آلاف جمل ، بعدما كانت مركزاً لتجمع الجمال ، التي ترتبط حياة كل الشعب بها ، وهذا العدد القليل من الجمال في طريقه اليوم الى الزوال ، من اجل اعفاء السيارات الاميركية من « الغرائم » التخلفية . . انها الحضارة والتجدد . . وخزن قطع الحديد من السيارات الاميركية المتلفة !! فما أبأسهم ، وهم فرحون ، يشكرون ويحمدون ، ويقولون : لقد أصبحنا في جنة ، ولو دخلت بلادنا قبل خمس سنوات لما رأيت سيارة قط ، وما كنت تراه جمالاً وشقاوة وتعباً ، سيرنا وترحالنا كله على الجمال ، أما الآن ، فلله الحمد ، طائرات « بوينغ » ، وسيارات مكيفة و . . . ! حتى أصبح أحدهم يستعيبك ويحتقرك ، إذا رآك مثلاً في سيارة « بيجو » ، لأن العاديين هناك ، يمتلكون « كاديلاك » وشفرليت ٧١ و ٧٢ فكيف . . . ؟! هذا تقدمهم . . ظاهر بلا شك !.

عندما يدخل أوروبي او أميركي مدينة الرياض اليوم ، سيندهش من التجدد ، فالسيارات كلها حديثة مائة بالمائة من طراز ٦٩ الى ٧٢ ، وليس لها مثيل في أي بلد من العالم ؛ من اميركا الى الشرق الأوسط ؛ كل بلد تراه متأخراً اقتصادياً ، تراه أكثر تجدداً وتجملاً من غيره !! فعندما تقلع بك الطائرة من باريس ، لتهبط في دار السلام عاصمة تانزانيا ، تندهش من الجمال والجلال وعظمة البنايات ، وحداثة العمارات ، والسيارات التي هي آخر طراز حديث !!. فما هو التجمل ؟ انه التقدم في الاستهلاك ، الشيء الذي يقضون علينا من أجله ، ليسلبوا منا أمل الانتاج .. نعم ، الشرق كله ضحية الانتاج الاستهلاكي بواسطة التبعية والتقليد الأعمى !!.

الحريات الفردية :

الحرية الفردية أداة تخدير كبرى لإغفال الحرية الاجتماعية ، حيث النباهة الاجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى . انهم ينادون بالحرية الفردية ، ويدعونك لها ، من أجل تمويه الأذهان ، والغفلة عن « النباهة الاجتماعية » ، حيث يرى الانسان نفسه حراً من الناحية الفردية ، في غذائه وشهواته . كقفص فيه طير ، وقد وضع في صالة مغلقة تماماً ، ثم فتح باب القفص . انه شعور

كـاذب بالحـرية . . لأن الأسـير الذي يعلم أنـه مأسـور ، يحاول ان يطلق نفسه ، ويتحرر من الأسر ، بينما الـذي لا يعلم أنه أسير ، ويشعر بالحـرية ، فشعـوره وهم وكذب ، وهو يشكر الله ويحمده على تلك الحرية المزيفة .

حرية الجنس :

لحرية الجنس نوعان اثنان :

أحدهما يقدمه الغـرب هديـة للشرق ، واسمـه « حريـة الجنس » بـدلاً لما ينهبـه ويسلبه من المـواد الخام ! فـالغرب يرى أن عليه ان يتحف الشـرق مقابـل ما أخـذه من المواد الخـام ، ولذا يسمـح للشـرقيين بـأن يكـونـوا أحـراراً من « الناحية الجنسية » بلا قيد ولا مانع . . وبعد ذلـك ، تأتي أجهزة الدعاية ، والمـواصلات الجماعية في الشـرق لتؤكد وتدعو الى « الحرية الجنسية » عند جيل يتراوح سنـه بين ١٨ و ٢٥ سنة . وعلى هـذا ، رأى الغرب من الـلازم عليه ان يلهيَ هـذا الجيـل ويشغله « بـالحـريـة الجنسية » . وفي اعتقاده ، ان هذا الجيل يتعرض لحالتين من الاضطراب : احداهما من اجل « الحريـة الاجتماعيـة » والثانيـة ، حالـة الاضـطراب والتشويش النـاتجة عن « الأزمـة الجنسيـة » ، وهكذا ، رأى الغربيون أنه من الأحـرى افساح المجـال ، أمـام هـذا الجيـل في « حـريـة الجنس » ليعـدمـوا منه

« الشعور » بالحاجة الى « الحرية الاجتماعية » الزائدة !
أجل ! ان بإمكانهم أن يلهوه خمس سنوات او ست، أي طيلة « الأزمة الجنسية » التي تضغط عليه ، حتى ينشغل عن « الحرية الاجتماعية » ، فيتلهى بأهوائه ونزواته ، الى حد يفقد معه شعوره ، وبعد انقضاء هذه المدة يرتفع الخطر .

حرية المرأة :

ماذا يقصد بحرية المرأة ؟ والقصد ، الحرب التمويهية ! من أجل الإثارة ، وفتح باب الجدل ، والاختلاف بين الرجل والمرأة ، والهائهما عن الأساسيات من القضايا العادلة ، عن حقوقهما ، عن مشكلة الشرق والغرب ، عن مشكلة المستعمرين والخاضعين للاستعمار . . . .

التقليد والتبعية :

لقد قيل الكثير عن هذه القضية، لكن ، الشيء الذي لم يتطرق أحد اليه هو « دور المرأة في قضية التقليد » . ان أكبر عنصر ، يلعب دوراً أساسياً في « الحضارة الاستهلاكية » هو المرأة ، حيث لها السهم الأوفر ، والدور الكبير ، في نشر واشاعة الحضارة الاستهلاكية ، وتطور الأنواع والفرق والجماعات والعلاقات العائلية والروابط

الاجتماعية والسياسية في الثلاثين سنة الأخيرة ، مما يقتضي بحثاً خاصاً لا مجال له هنا ، لكني ، أضرب مثلاً في التبعية وتقليد الآخرين : والمثل مأخوذ من أوروبا ، حيث يذهب الأوروبيون الى الغابات لصيد القردة حية سالمة . فيضع الصيادون اناءً مملوءً بالصمغ اللزج تحت الأشجار ، او على ضفاف الأنهار ، في ممر القردة ، وإناءً آخر في زاوية أخرى ، يشبه الإناء الأول ، لكن فيه ماء ! ويجلسون ازاءه بانتظار مرور القردة . وعندما تأتي وتقف حذاء الإناء المليء بالصمغ ، يرفع الصيادون أيديهم ، فترفع القردة أيديها ، يغمس الصيادون ايديهم في الأواني المليئة بالماء ، فتغمس القردة ايديها في الأواني المليئة بمادة الصمغ اللزج . يخرج الصيادون أيديهم ، ويضعونها على جباههم كحالة التيمم ، فتعمل القردة مثلهم تماماً ، يمسح الصيادون بأيديهم على وجوههم وعيونهم ، فتمسح القردة ايضاً على الوجوه والعيون ! يقف هؤلاء مقابل الشمس ، فتقف القردة مقابل الشمس !! وبعدها . تجف تلك المادة على وجوه القردة . فتلصق أجفانها ويتعذر فتحها ! وعندها يذهب الصيادون اليها ويلقون القبض عليها بسهولة !! .

الخلاصة

وفي النتيجة ، يعمل الاستعمار القديم على اشغال الشعوب والهائها عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » لإنشاء جيل مطابق لمقاييسه وحساباته . كأن تكون زنته أربعة مثاقيل ، وطول باعه اربعة سنتميترات فقط ، وطريقته المثلى ، لحية من الأمام ، وعباءة من الخلف ، وكتاب أدعية ، ومسجد ، وصلاة ، وصيام ، وتعزية ! هذا برنامجه اليومي والسلام .

هذا جيل ، ينشئه الاستحمار القديم ، جيل فارغ ، مضطرب ، لايتحمل أي مسؤولية ! أما الاستحمار الجديد ، فمن أجل ان يسلب « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » يتمثل ويتخلص ب « عقيلة »

وسيارة « بيجو » و رزمة مناديل « كلينكس » وقدر من « المتاع » و « محفظة مستحضرات » و « ديون » والسلام ، لا فكر ولا تعب ، لاهم ولا نصب ، ولا هم يحزنون . هذا هو لا أكثر !!.

أعيدوا النظر الى فتياتكم ، اللواتي تزوجن ، واللواتي لم يتزوجن بعد ، وانظروا الى ما كتبن عن أنفسهن ، وكيف عبّرن عما يجول في باطنهن ، حين كن ، في الصفوف الثانوية الخامسة والسادسة ، من سن ال ١٨ الى ما فوق ، تجدوا تشاؤماً وفلسفة . . . رباه ، لِمَ خلقتني ، ايها الموت لِمَ لا تأخذني ؟ ألا موتاً يباع فأشتريه !. كلام مليء بالعواطف الخالية والعبارات الروائية . . ورقة النفس ، انها تظن نفسها سهرت الليل كله من شدة المرض ! ولقد ارادت ان تنتحر ، أو عزمت ان تلقي في بئر . . و . . و . . من هذه الخيالات والتصورات . .

لكنها الآن ، بعد ان تزوجت ، أضاعت « طرقها المثلى » كلها في الشهرين او الثلاثة أشهر الأولى من زواجها ، وأعطت طومار ذكرياتها لشخصٍ يقرأه ، ولم تذهب لتسترده ، كما أنها تستحي أن تفتحه ، لأيٍ شيء ؟ لأن الأقساط والديون أمرضتها ، وافلجتها تماماً ، وليس من شفاء لآلامها سوى بطاقات اليانصيب ، واقتراع بنك

(عمران)[1] ، وما أسرع ما تلتقي طرفا دائرة عمرها ، فتخيب آمالها وتذهب هباءً !!

هذا جيل « الاستحمار » الحديث ، وذاك جيل « الاستحمار » القديم . الاستحمار الذي بات يرصد كل واحدٍ منا ، نخرج أنفسنا من شكله القديم ، فيتلقانا بشكله الحديث ، نتمرد عليه في مكان ، فيلهينا ونقع في حبائله في مكان آخر ، نرفضه من ناحية ، فيسخرنا من ناحية أخرى ! نتنبه الى جانب منه ، فيشغلنا في جانب آخر ، نكتشف حرباً ابهامية ، فيوقعنا في حرب ابهامية أخرى .. وهكذا دائماً !! .

وعلى هذا ، فإن جيلنا أسير في أيدي تلك القدرات ، الى حد يمكنها ان تصنعه كيفما شاءت ، وطبقاً لمقاييس معينة ، تنتجه كما تنتج من مادة المطاط (البلاستيك)انواع الأواني والسلع ، انهم أهل علم وصنعة ، ولديهم تلفزيون وصحف ومعارض ومسرحيات وفنون ، والى جانب هذا كله ، استخدموا الترجمة والعلوم ، وعلم الاجتماع ، كما أن وحدة القياس العالمي لهم ايضاً . فكيف نطمئن اذاً

---

(١) جوائز سحب البنك الوطني

الى عدم الوقوع في أسر « الاستحمار القديم » او « الاستحمار الجديد » كيف ؟ ونحن الصغار البسطاء الغافلون نحزن ونصاب « بعقدة » من أجل أي شيء يسير ثم نسر ونفرح لأمر جزئي . . أحزاننا وافراحنا ومثلنا العليا يسيرة جداً ! .

إن أي قضية فردية او اجتماعية ، أدبية كانت أم اخلاقية أم فلسفية ، دينية او غير دينية تُعْرَضُ علينا ، وهي بعيدة عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » ، ومنحرفة عنها ، هي استحمار ، قديم أو جديد مهما كانت مقدسة .